جائزة المجلس الأعلى للغة العربية للآداب

المجلس الأعلى للغة العربية

اليوم بذرة و غداً شجرة

منشورات المجلس 2023

عبد الرحمان كرومي

المجلس الأعلى للغة العربية
شارع فرانكلن روزفلت. الجزائر
023 48 72 79
moussabaka.hda@gmail.com

سلسلة

اليوم بذرة وغداً شجرة

عبد الرّحمن كرومي

السّلسلة القصصيّة الحائزة على:

جائزة المجلس الأعلى للّغة العربيّة للآداب

فئة أفضل عمل موجّه للطّفل

اليوم بذرة وغداً شجرة

السّلسلة القصصيّة الحائزة على:

جائزة المجلس الأعلى للّغة العربيّة للآداب

فئة أفضل عمل موجّه للطّفل

قياس الصّفحة: 29,7/21
عدد الصّفحات: 41
الإيداع القانوني: السّداسي الثّاني 2023
ردمك: 978-9931-298-21-2

وَفَاءُ الصَّدِيقَاتِ

أَمَانِي فَتَاةٌ مُهَذَّبَةٌ وَمُجْتَهِدَةٌ، لَكِنَّهَا خَجُولَةٌ أَحْيَانًا، تَصِلُ كُلَّ يَوْمٍ إِلَى الْمَدْرَسَةِ فِي الْمَوْعِدِ الْمُحَدَّدِ رَغْمَ بُعْدِ مَنْزِلِهَا. تَسْتَيْقِظُ فِي الصَّبَاحِ البَاكِرِ، فَتُرَتِّبُ فِرَاشَهَا وَتَتَوَضَّأُ وَتُصَلِّي الْفَجْرَ، وَتُحَيِّي وَالِدَتَهَا وَجَدَّهَا عَلَى سُفْرَةِ الْفَطُورِ، ثُمَّ تَتَفَقَّدُ مِحْفَظَتَهَا وَتَرْتَدِي زِيَّهَا الْمَدْرَسِيَّ، وَحِذَاءَهَا الذِي فَقَدَ لَوْنَهُ البُنِّيَّ؛ لِكَثْرَةِ اسْتِعْمَالِهِ مِنْ قِبَلِ بَنَاتِ خَالَتِهَا قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهَا.

تَخْرُجُ **أَمَانِي** مِنَ الْمَنْزِلِ وَهِيَ تُرَدِّدُ دُعَاءَ الْخُرُوجِ مَعَ أُمِّهَا: (بِسْمِ اللَّهِ، تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ، ولاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّه)، فَتَمُرُّ بِمَنْزِلِ صَدِيقَتِهَا لِتُرَافِقَهَا إِلَى الْمَدْرَسَةِ، وَفِي طَرِيقِهِمَا تَتَنَاقَشَانِ كُلَّ مَرَّةٍ حَوْلَ أَحَدِ الْمَوْضُوعَاتِ الَّتِي تَهُمُّهُمَا؛ فَتَارَةً تَتَطَرَّقَانِ إِلَى مَا حَفِظَتْهُ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْ قُرْآنٍ وَأَذْكَارٍ.. وَتَارَةً أُخْرَى تَتَحَدَّثَانِ عَنْ مَا أَخَذَتَاهُ فِي الْمَدْرَسَةِ مِنْ دُرُوسٍ وَنَشَاطَاتٍ .. وَأَحْيَانًا تَسْتَعِيدَانِ مَا شَارَكَتَا فِيهِ مِنْ أَنْشِطَةِ الْإِذَاعَةِ الْمَدْرَسِيَّةِ وَالنَّادِي الْمَدْرَسِي..

أَمَانِي تِلْمِيذَةٌ نَجِيبَةٌ وَنَشِيطَةٌ، لَكِنَّهَا تُفَضِّلُ الْإِجَابَةَ عَلَى الْأَسْئِلَةِ الشَّفَوِيَّةِ الَّتِي لَا تَحْتَاجُ إِلَى الْكِتَابَةِ عَلَى السَّبُّورَةِ؛ حَتَّى لَا تَنْتَبِهَ زَمِيلَاتُهَا إِلَى حِذَائِهَا الْبَالِي، فَقَدْ كَانَتْ دَائِمًا تُحَاوِلُ إِخْفَاءَهُ بِفُسْتَانِهَا حَتَّى وَهِيَ جَالِسَةٌ، وَلَكِنْ كَثِيرًا مَا بَاءَتْ مُحَاوَلَاتُهَا بِالفَشَلِ.

تَفَطَّنَتِ الْمُعَلِّمَةُ لِذَلِكَ، وَفَكَّرَتْ فِي إِهْدَائِهَا حِذَاءً جَدِيدًا، لَكِنَّهَا لَا تُرِيدُ أَنْ تُحْرِجَهَا بِذَلِكَ، فَالْمُعَلِّمَةُ تَعْلَمُ أَنَّ **أَمَانِي** ذَكِيَّةٌ وَخَجُولَةٌ، وَتَعْرِفُ حَالَةَ أُسْرَتِهَا الْبَسِيطَةِ، لَكِنَّهَا لَا تَعْرِفُ قِيَاسَ قَدَمِهَا.

فِي حِصَّةِ التَّرْبِيَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، قَامَتِ الْمُعَلِّمَةُ بِمُرَاجَعَةِ دَرْسِ الصَّلَاةِ، فَجَعَلَتْهَا حِصَّةً تَطْبِيقِيَّةً، رَافَقَتْ فِيهَا التِّلْمِيذَاتِ إِلَى مُصَلَّى الْمَدْرَسَةِ، وَطَلَبَتْ مِنْهُنَّ أَدَاءَ مَشْهَدٍ تَمْثِيلِيٍّ لِإِثْبَاتِ مَعْرِفَتِهِنَّ بِالْخَطَوَاتِ الصَّحِيحَةِ لِلصَّلَاةِ، وَقَفَتِ الْمُعَلِّمَةُ فِي الْخَلْفِ تُرَاقِبُ خَلْعَ الْأَحْذِيَةِ، ثُمَّ اسْتَغَلَّتْ لَحْظَةَ اسْتِقْبَالِهِنَّ الْقِبْلَةَ لِتَطَّلِعَ عَلَى حِذَاءِ **أَمَانِي**.

فِي الْيَوْمِ الْمُوَالِي وَقُبَيْلَ نِهَايَةِ الْحِصَّةِ الْأَخِيرَةِ، وَضَعَتِ الْمُعَلِّمَةُ عُلْبَةً عَلَى مَكْتَبِهَا وَأَخْبَرَتِ التِّلْمِيذَاتِ بِإِجْرَاءِ مُسَابَقَةٍ، وَالْفَائِزَةُ تَحْصُلُ عَلَى الْجَائِزَةِ الَّتِي عَلَى الْمَكْتَبِ كَانَ سُؤَالُ الْمُسَابَقَةِ سَهْلًا؛ فَأَجَابَتْ جَمِيعُ التِّلْمِيذَاتِ إِجَابَةً صَحِيحَةً، وَفَرِحْنَ بِذَلِكَ.

اِقْتَرَحَتِ الْمُعَلِّمَةُ إِجْرَاءَ الْقُرْعَةِ لِتَحْدِيدِ صَاحِبَةِ الْعُلْبَةِ؛ فَأَفْرَغَتِ الْعُلْبَةَ مِنْ أَجْلِ اسْتِعْمَالِهَا، وَطَلَبَتْ أَنْ تَكْتُبَ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ اِسْمَهَا عَلَى قُصَاصَةٍ وَرَقِيَّةٍ وَتَضَعَهَا فِي الْعُلْبَةِ بَعْدَ طَيِّهَا.

خَلَطَتِ الْمُعَلِّمَةُ الْوُرَيْقَاتِ، وَأَخَذَتْ وَاحِدَةً مِنْهَا، لِتَتَفَاجَأَ أَنَّ اِسْمَ الْفَتَاةِ الَّتِي كَانَتْ تُرِيدُ قِرَاءَتَهُ فِي كُلِّ الْأَحْوَالِ، هُوَ نَفْسُهُ الْمَكْتُوبُ عَلَى الْقُصَاصَةِ، إِنَّهُ اِسْمُ **أَمَانِي**، اِبْتَهَجَتْ الْفَتَيَاتُ بِذَلِكَ، وَتَسَلَّمَتْ **أَمَانِي** جَائِزَتَهَا فِي جَوٍّ بَهِيجٍ تَمْلَؤُهُ الْبَسمَاتُ وَالتَّصْفِيقَاتُ وَالتَّبْرِيكَاتُ..

أَفْرَغَتِ الْمُعَلِّمَةُ الْعُلْبَةَ لِتَضَعَ فِيهَا حِذَاءَ **أَمَانِي** الْجَدِيدَ، فَانْتَبَهَتْ إِلَى أَنَّ هُنَاكَ قُصَاصَةً أُخْرَى تَحْمِلُ اِسْم **أَمَانِي**، بَعْدَ انْصِرَافِ التِّلْمِيذَاتِ، رَاجَعَتِ الْمُعَلِّمَةُ

الْقُصَاصَاتِ لِتَعْرِفَ التِّلْمِيذَةَ الَّتِي آثَرَتْ **أَمَانِي** عَلَى نَفْسِهَا، فَلَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تُمْسِكَ دُمُوعَهَا مِنَ الْفَرَحِ بِتِلْمِيذَاتِهَا؛ لَقَدْ كَانَتْ كُلُّ قُصَاصَةٍ فِي الْعُلْبَةِ تَحْمِلُ اِسْمَ **أَمَانِي**.

.....

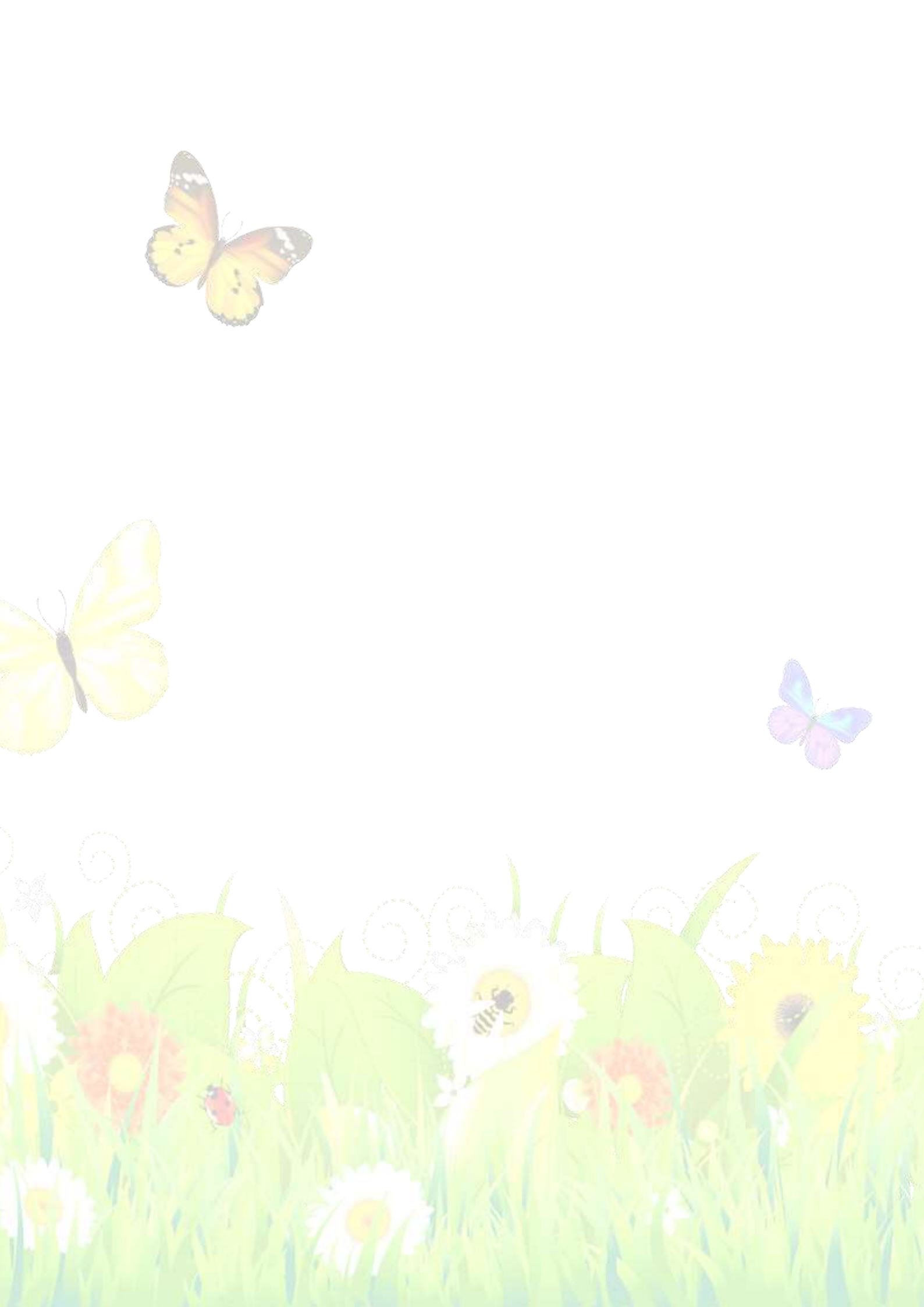

الصَّدَقَةُ دَوَاءٌ

كَانَتْ حَيَاةُ اَلْعَمِّ أَحْمَدَ مُنْقَسِمَةً بَيْنَ اَلْمَسْجِدِ وَالْمَنْزِلِ وَالْعَمَلِ، فَهُوَ رَجُلٌ يُحَافِظُ عَلَى اَلصَّلَوَاتِ فِي مَسْجِدِ اَلْحَيِّ، وَيَجْلِسُ بَعْدَ اَلصَّلَاةِ أَحْيَانًا لِيَتْلُوَ سُوَرًا قُرْآنِيَّةً وَيَتَدَبَّرَ اَلْآيَاتِ اَلْوَارِدَةَ فِيهَا.. وَهُوَ وَالِدٌ مُهْتَمٌّ بِرِعَايَةِ أَوْلَادِهِ كَثِيرًا؛ يُشْرِفُ عَلَى تَحْفِيظِهِمْ وَمُذَاكَرَتِهِمْ، وَيُرَافِقُهُمْ فِي عُطْلَةِ اَلْأُسْبُوعِ لِزِيَارَةِ اَلْأَقَارِبِ وَالْمُنْتَزَهَاتِ..

جَاسِمٌ هُوَ الوَلَدُ اَلْأَصْغَرُ الَّذِي يُرَافِقُهُ إِلَى الْمَسْجِدِ، وَكَانَ يُحِبُّهُ كَثِيرًا بِسَبَبِ أَخْلَاقِهِ اَلْحَسَنَةِ، وَمُوَاظَبَتِهِ عَلَى اَلصَّلَاةِ، وَمُثَابَرَتِه عَلَى حِفْظِ اَلْقُرْآنِ اَلْكَرِيمِ، وَنَتَائِجِهِ اَلدِّرَاسِيَّةِ اَلْمُمْتَازَةِ.

عَادَ اَلْيَوْمَ مِنَ اَلْمَدْرَسَةِ وَمَعَهُ شَهَادَةٌ طِبِّيَّةٌ، سَلَّمَهَا لَهُ اَلطَّبِيبُ بَعْدَ إِجْرَاءِ اَلْفُحُوصَاتِ اَلْمَدْرَسِيَّةِ. اِطَّلَعَ أَبُوهُ عَلَى اَلشَّهَادَةِ، فَعَلِمَ أَنَّهُ بِحَاجَةٍ إِلَى تَحْلِيلَاتٍ عَاجِلَةٍ، فَالْأَعْرَاضُ اَلَّتِي تَظْهَرُ عَلَيْهِ خَطِيرَةٌ. أَخْبَرَ الْعَمُّ أَحْمَدُ أُمَّ جَاسِمٍ بِالْأَمْرِ، فَتَأَثَّرَتْ كَثِيرًا، وَلَكِنَّهَا أَخْفَتْ دُمُوعَهَا حَتَّى لَا يَنْعَكِسَ ذَلِكَ عَلَى نَفْسِيَّةِ جَاسِمٍ وَصِحَّتِهِ، وَفِي مُنْتَصَفِ اَللَّيْلِ اِسْتَيْقَظَ أَبُو جَاسِمٍ وَأُمُّهُ، فَتَوَضَّآ وَقَامَا يُصَلِّيَانِ وَيَدْعُوَانِ اَللَّهَ لِوَلَدِهِمَا فِي خُشُوعٍ وَتَضَرُّعٍ.

وَفِي اَلصَّبَاحِ هَاتَفَ الْعَمُّ أَحْمَدُ مُدِيرَهُ، فَاسْتَأْذَنَهُ فِي اَلتَّأَخُّرِ عَنِ اَلْعَمَلِ مِنْ أَجْلِ مُرَافَقَةِ اِبْنِهِ إِلَى مُخْتَبَرِ اَلتَّحَالِيلِ اَلطِّبِّيَّةِ.. حِينَ وَصَلَ جَاسِمٌ مَعَ وَالِدَيْهِ وَجَدُوا قَاعَةَ اَلِانْتِظَارِ مُمْتَلِئَةً، وَلَمْ يَكُنْ بِوُسْعِ الْعَمِّ أَحْمَدَ أَنْ يَنْتَظِرَ حَتَّى يَحِينَ دَوْرُ اِبْنِهِ، فَلَدَيْهِ اِجْتِمَاعٌ ضَرُورِيٌّ فِي اَلْعَمَلِ، فَأَخْبَرَ أُمَّ جَاسِمٍ بِذَلِكَ وَهَمَّ بِالِانْصِرَافِ، وَعَلَى اَلْقُرْبِ

مِنْهُمَا كَانَتْ تَجْلِسُ اِمْرَأَةٌ يَبْدُو التَّعَبُ عَلَى وَجْهِهَا، وَبِجِوَارِهَا صَبِيٌّ فِي عُمْرِ جَاسِمٍ، سَمِعَتْ بِالصُّدْفَةِ مَا دَارَ بَيْنَهُمَا مِنْ كَلَامٍ، فَعَرَضَتْ عَلَى أُمِّ جَاسِمٍ أَنْ تُعْطِيَهَا دَوْرَ وَلَدِهَا وَكَانَ قَدْ أَوْشَكَ عَلَى الدُّخُولِ إِلَى الطَّبِيبِ، وَتَنْتَظِرَ هِيَ وَابْنُهَا فَلَا شَيْءَ وَرَاءَهَا غَيْرَ هَذَا اَلْوَلَدِ. لَمْ تَكُنِ اَلْمَرْأَةُ اَلْمِسْكِينَةُ تَمْتَلِكُ ثَمَنَ اَلتَّحَالِيلِ، فَتَأَخَّرَتْ أَيَّامًا حَتَّى تَمَكَّنَتْ مِنْ جَمْعِ اَلثَّمَنِ اَلْمَطْلُوبِ، وَهِيَ اَلْآنَ تَخْشَى أَنْ يَتَأَكَّدَ مَرَضُ اِبْنِهَا.

شَكَرَتْ أُمُّ جَاسِمٍ تِلْكَ اَلْمَرْأَةَ عَلَى إِيثَارِهَا، وَانْصَرَفَتْ مَعَ جَاسِمٍ وَأَبِيهِ بَعْدَ اِنْتِهَاءِ الإِجْرَاءَاتِ، وَفِي اَلْيَوْمِ اَلْمُوَالِي رَافَقَ العَمُّ أَحْمَدُ أُمَّ جَاسِمٍ لِاسْتِخْرَاجِ نَتَائِجِ اَلتَّحْلِيلِ وَعَرْضِهَا عَلَى اَلطَّبِيبِ، لِيُخْبِرَهُمَا بِأَنَّ جَاسِمًا يُعَانِي مِنْ مَرَضٍ خَطِيرٍ جِدًّا، وَقَدْ لَا يَتَعَافَى مِنْ هَذَا الْمَرَضِ أَبَدًا، بِسَبَبِ ضُعْفِ جِسْمِهِ وَنُدْرَةِ الدَّوَاءِ.

كَانَ حُزْنُ اَلْوَالِدَيْنِ كَبِيرًا حِينَهَا، لَمْ تَتَحَمَّلْ أُمُّ جَاسِمٍ هَذَا النَّبَأَ الْحَزِينَ فَاتَّكَأَتْ عَلَى مَقْعَدٍ فِي الْفِنَاءِ، وَأَبُو جَاسِمٍ يَحُثُّهَا عَلَى اَلتَّمَاسُكِ وَيُذَكِّرُهَا بِرَحْمَةِ اللهِ وَكَرَمِهِ، وَبَعْدَ أَنِ اِرْتَاحَتْ قَلِيلًا ذَهَبَ لِإِحْضَارِ سَيَّارَتِهِ مِنْ الْمِرْآبِ، وَحِينَ رَجَعَ إِلَى فِنَاءِ اَلْعِيَادَةِ لَمْ يَجِدْ أُمَّ جَاسِمٍ، فَاتَّصَلَ بِهَا، لَكِنَّهَا لَمْ تُجِبْ، فَدَخَلَ إِلَى اَلْعِيَادَةِ لِيَجِدَهَا تُعَانِقُ اَلْمَرْأَةَ اَلْمِسْكِينَةَ وَتُهَدِّئُ مِنْ رَوْعِهَا، وَالْمَرْأَةُ فِي حَالَةٍ يُرْثَى لَهَا مِنَ اَلْقَهْرِ اَلَّذِي يَبْدُو عَلَى وَجْهِهَا الذَّابِلِ، لَقَدْ تَأَكَّدَتْ أَنَّ اِبْنَهَا اَلْوَحِيدَ فِي خَطَرٍ، وَيَجِبُ تَدَارُكُ اَلْوَضْعِ قَبْلَ أَنْ تَفْقِدَهُ إِلَى اَلْأَبَدِ.

لَمْ يَكُنْ مَرَضُ اَلِابْنِ هُوَ مَا يُقْهِرُ اَلْمَرْأَةَ فَقَطْ، بَلْ كَانَ عَجْزُهَا عَنْ دَفْعِ تَكْلُفَةِ اَلْعَمَلِيَّةِ وَمُسْتَحَقَّاتِ اَلْعِلَاجِ أَكْثَرَ قَهْرًا، فَهِيَ لَا تَسْتَطِيعُ تَوْفِيرَ لُقْمَةٍ تَسُدُّ بِهَا رَمَقَهُ إِلَّا بِكَثِيرٍ مِنَ اَلْعَمَلِ اَلشَّاقِّ.. لَمْ يَسْتَطِعْ الْعَمُّ أَحْمَدُ كِتْمَانَ مَشَاعِرِهِ اَلْمُرْهَفَةِ، وَرَغْمَ

تَأَثُّرِهِ بِحَالَةِ اِبْنِهِ إِلَّا أَنَّهُ أَقْبَلَ عَلَى اَلْمَرْأَةِ يُطَمْئِنُهَا وَقَدْ سَالَتْ دَمْعَةٌ عَلَى خَدِّهِ، ثُمَّ طَلَبَ مِنْ أُمِّ جَاسِمٍ أَنْ تُرَافِقَهَا إِلَى اَلسَّيَّارَةِ.

سَعَى الْعَمُّ أَحْمدُ جَاهِدًا لِلْوُصُولِ إِلَى الدَّوَاءِ النَّادِرِ مِنْ أَجْلِ وَلَدِهِ، لَكِنَّهُ لَمْ يَجِدْ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا، فَانْتَقَلَ بِهِ إِلَى خَارِجِ الْبِلَادِ لَعَلَّهُ يَجِدُ عِلَاجًا، وَقَبْلَ سَفَرِهِ تَكَفَّلَ بِدَفْعِ تَكَالِيفِ اَلْعَمَلِيَّةِ وَالْأَدْوِيَةِ لِلْوَلَدِ الْمِسْكِينِ، وَظَلَّتْ أُمُّ جَاسِمٍ تَزُورُهُ فِي الْمُسْتَشْفَى، وتُنْعِمُ عَلَيْهِ بِأَطْيَبِ اَلْأَطْعِمَةِ، وَتُلَاطِفُهُ وَتُشَجِّعُهُ وَتُوَاسِي أُمَّهُ.

عَادَ الْعَمُّ أَحْمَدُ وَابْنُهُ مِنَ السَّفَرِ، بَعْدَ أَنْ زَارَا عَدَدًا مِنَ الْمُسْتَشْفَيَاتِ الْمُتَطَوِّرَةِ وَلَمْ يَعْثُرَا عَلَى دَوَاءٍ نَاجِعٍ، وَقَدْ وَصَفَ لَهُمَا الْأَطِبَّاءُ دَوَاءً مُهَدِّئًا، وَطَلَبُوا مِنْهُمَا الْعَوْدَةَ بَعْدَ ثَلَاثَةِ أَشْهُرٍ، وَمَا إِنَّ رَجَعَا حَتَّى سَأَلَ الْعَمُّ أَحْمَدُ عَنِ الْمَرْأَةِ وَوَلَدِهَا، فَعَلِمَ أَنَّ صِحَّةَ الطِّفْلِ بِخَيْرٍ، لَكِنَّهُمَا يَعِيشَانِ فِي حِرْمَانٍ وَفَقْرٍ.

زَارَتْ أُمُّ جَاسِمٍ المَرْأَةَ الْمِسْكِينَةَ وَأَهْدَتْهَا مَجْمُوعَةً مِنَ الأَغْرَاضِ الَّتِي أَحْضَرَهَا زَوْجُهَا، وَقَامَ أَبُو جَاسِمٍ بِتَسْوِيَةِ وَثَائِقِ الطِّفْلِ وَإِلْحَاقِهِ بِالمَدْرَسَةِ الّتِي يَدْرُسُ فِيهَا جَاسِمٍ، وَمَعَ ذَلِكَ كَانَ يَعْرِفُ أَنَّ هَذَا لَيْسَ كَافِيًا لِتَحْيَا المرأة مع ابنها حياة كريمة، فاقترح على المدير تشغيلها بما يتناسب مع كفاءتها وطاقتها، فرحب المدير بهذا الاقتراح.

اِنْتَهَتِ الْمُهْلَةُ، وَسَافَرَ جَاسِمٌ مَعَ أَبِيهِ مَرَّةً أُخْرَى، وَبَعْدَ إِجْرَاءِ الفُحُوصَاتِ الْأَوَّلِيَّةَ اِسْتَغْرَبَ

انتهت المهلة، وسافر جاسم مع أبيه مرة أخرى، وبعد إجراء الفحوصات الأولية استغرب الأطباء من حالته الجديدة، وراجعوا ملفه الطبي مرارا وتكرارا، وأعادوا

الفحوصات والتحاليل عدة مرات، لكنهم لم يجدوا أي أثر للمرض الذي كان يعاني منه. فَسَأَلُوا وَالِدَهُ عَنِ الْعِلَاجِ الَّذِي اِسْتَعْمَلَهُ خِلَالَ هَذِهِ الْفَتْرَةِ، وَحِينَ عَلِمُوا أَنَّهُ لَمْ يَسْتَعْمِلْ غَيْرَ الدَّوَاءِ الْمُهَدِّئِ الَّذِي لَا يُمْكِنُهُ أَنْ يُعَالِجَ هذا المرض علاجا جذريا، ألحوا عليه بأن يخبرهم بكل التغيرات التي حدثت في حياة ولدة، من أغذية ورياضة وسلوك ... فلم يَتَذَكَّرِ الْعَمُّ أَحْمَدُ أَيَّ تَغَيُّرٍ، لَكِنَّ إِصْرَارَ الْأَطِبَّاءِ عَلَى مَعْرِفَةِ السَّبَبِ جَعَلَتْ أَبَا جَاسِمٍ يُخْبِرُهُمْ بِكُلِّ مَا حَصَلَ خِلَالَ هَذِهِ الْفَتْرَةِ، وَانْدَهَشُوا جَمِيعًا حِينَ تَفَطَّنُوا إِلَى أَنَّ الإِحْسَانَ لِلْمَرْأَةِ وَصَغِيرِهَا كَانَ سَبَبًا فِي شِفَاءِ جَاسِمٍ.

.....

شَهَامَةُ امْرَأَةٍ

فِي الرِّيفِ، تِلْكَ الْمِنْطَقَةُ النَّائِيَةُ، حَيْثُ تَعِيشُ (سَعِيدَةُ) مَعَ ابْنَهَا عَلَى هَامِشِ الْحَيَاةِ، فَبَعْدَ وَفَاةِ وَالِدِهِمَا الَّذِي كَانَ يَمْتَلِكُ حَقْلًا يَقْضِي فِيهِ بَيَاضَ نَهَارِهِ، اسْتَوْلَى عَلَيْهِ أَخُوهُ (عَزِيزٌ) بِغَيْرِ وَجْهِ حَقٍّ، وَخَطَّ مِنْ أَجْلِهِ أَوْرَاقًا كَانَتْ وَصِيَّةً مُزَيَّفَةً لِيُصْبِحَ الثُّلَاثِيُّ يَعِيشُ -بِالإِضَافَةِ إِلَى اليُتْمِ وَالتَّرَمُّلِ- حَيَاةَ فَاقَةٍ مُعْدِمَةٍ، فَالْوَلَدَانِ مَازَالَا عَاجِزَيْنِ عَنْ كَسْبِ فِلْسٍ أَوْ فِلْسَيْنِ يَسُدَّانِ بِهِمَا رَمَقَ الْعَيْشِ، فَهُمَا قَاصِرَانِ عَنْ الْمُشَارَكَةِ فِي أَشْغَالِ الْبِنَاءِ وَأَعْمَالِ الْفِلَاحَةِ كَمَا هُوَ الْحَالُ عِنْدَ بَعْضِ أَبْنَاءِ الْقَرْيَةِ الَّذِينَ يَسْتَرْزِقُونَ مِنْ هَذِهِ الْأَعْمَالِ.

فِي مِثْلِ هَذِهِ الظُّرُوفِ تَضْطَرُّ الْوَالِدَةُ إِلَى تَمْثِيلِ دُورِ الطَّبِيبَةِ؛ طَبِيبَةِ الْأَعْشَابِ الَّتِي تَقْضِي سَوَادَ لَيْلِهَا فِي طَحْنِ الْحَشَائِشِ الَّتِي يُحْضِرُهَا الصَّبِيَّانِ مِنَ الْبَرَارِي الْمُتَرَامِيَةِ عَلَى جَنُوبِ الْقَرْيَةِ، بَعْدَ مُغَادَرَتِهِمَا مَدْرَسَةَ الشَّيْخِ حَمْدُونَ، لِيَعُودَا وَشَمْسُ الْأَصِيلِ تَخْتَفِي وَرَاء التِّلَالِ، بَعْدَهَا يَتَسَلَّقُ الْأَخُ الْأَكْبَرُ الْجِدَارَ لِيَعْتَلِيَ سَطْحَ الْكَوْخِ، وَيُسَلِّمُهُ شَقِيقُهُ حَصِيلَةَ أَرَقِهِمَا لِيَتَقَدَّمَ بِخَطَوَاتٍ مِلْؤُهَا الْحَذَرُ والتَّأَنّي حَتَّى لَا يَخِرَّ بِهِ سَقْفُ الْقَشِّ وَالْجَرِيدِ، وَتُصْبِحُ الْحَشَائِشُ بَعْدَ تَجْفِيفِهَا جَاهِزَةً لِلطَّحْنِ وَالتَّصْنِيفِ وَالْخَلْطِ.

هَكَذَا مَرَّتِ الْأَيَّامُ، بَلِ الشُّهُورُ وَالْأَعْوَامُ، وَ(سَعِيدَةُ) تَكْتَسِبُ خِلَالَهَا الْخِبْرَةَ فِي مَجَالِ طِبّ الْأَعْشَابِ؛ حَتَّى ذَاعَ صَيْتُهَا فِي الْأَرْيَافِ الْمُجَاوِرَةِ، وَأَصْبَحَتْ مَقْصَدَ كَثِيرٍ مِنَ الْمَرِيضَاتِ اللَّوَاتِي وَجَدْنَ رَاحَتَهُنَّ الصِّحِّيَّةَ فِي وَصْفَاتِهَا وَخَلْطَاتِهَا، وَعَثَرْنَ عَلَى سَكِينَتِهِنَّ النَّفْسِيَّةِ فِي حَدِيثِهَا الدَّافِئِ وَمُعَامَلَتِهَا الإِنْسَانِيَّةِ وَطَيْبَتِهَا الْعَفْوِيَّةِ، فَقَدْ

زَادَتْهَا الْمُمَارَسَةُ حِنْكَةً فِي الطِّبِّ وَفِطْنَةً فِي التَّعَامُلِ، فَأَصْبَحَتْ أَنْضَجَ مِمَّا كَانَتْ عَلَيْهِ وَهِيَ فَتَاةٌ تُسَاعِدُ جَدَّتَهَا الدَّايَةَ فِي تَطْبِيبِ النِّسَاءِ وَتَوْلِيدِهِنَّ.

أَخَذَ حَالُهَا يَتَحَسَّنُ شَيْئًا فَشَيْئًا، فَاشْتَرَتْ قِطْعَةَ أَرْضٍ تَدَّخِرُهَا لِبِنَاءِ مَسْكَنٍ لِوَلَدَيْهَا حِينَ يَبْلُغَانِ سِنَّ الزَّوَاجِ، وَأَثَّثَتْ مَنْزِلَهَا بِمَا يَكْفِي لِيَكُونَ مَنْزِلًا كَغَيْرِهِ مِنَ الْمَنَازِلِ، وَاقْتَنَتْ بَغْلَةً لِيَسْتَعِينَ بِهَا الْوَلَدَانِ فِي أَشْغَالِهِمَا.. لَمْ يَكُنْ (عَزِيزٌ) بِمَعْزِلٍ عَنْ حَيَاتِهَا، فَقَدْ كَانَ يُرَاقِبُهَا وَيَتَجَسَّسُ عَلَى جَدِيدِهَا دَائِمًا، وَفِي الآوِنَةِ الْأَخِيرَةِ أَصْبَحَ يَتَقَرَّبُ مِنْهَا وَيَتَوَدَّدُ إِلَيْهَا، تَارَةً بِإِهْدَائِهَا بَعْضَ الثِّمَارِ وَالخُضَرِ الَّتِي يَجْنِيهَا مِنَ الْبُسْتَانِ الْمَغْصُوبِ، وَتَارَةً أُخْرَى بِبَعْضِ العَلَفِ الَّذِي تَسْتَعِينُ بِهِ عَلَى تَسْمِينِ خِرَافِهَا وَإِطْعَامِ عَنْزَاتِهَا الَّتِي تَكْسِرُ سُكُونَ اللَّيْلِ بِالرُّغَاءِ وَالعَفِيطِ وَتَمْلَأُ السَّاحَةَ الْخَلْفِيَّةَ بِالرَّكْضِ وَالرَّفْسِ.

لَمْ تَكُنْ (سَعِيدَةُ) تُعْرِفُ نَوَايَا حَمْوِهَا، لَكِنَّهَا تَعْلَمُ أَنَّهَا غَيْرُ سَلِيمَةٍ، وَمَعَ ذَلِكَ كَانَتْ تُهَادِنُهُ وَتَتَّقِي شَرَّهُ بِهَدَايَاهَا؛ فَتَمْلَأُ أَوَانِيهِ الَّتِي تُصِلُهَا بِالْفَوَاكِهِ وَالْحَلَوِيَّاتِ الَّتِي تُحْضِرُهَا ضَيْفَاتُهَا.

لَمْ يَسْتَطِعْ (عَزِيزٌ) أَنْ يَكْتُمَ مُرَادَهُ طَوِيلًا؛ فَبَاحَ لِأَرْمَلَةِ أَخِيهِ بِنِيَّتِهِ فِي الزَّوَاجِ بِهَا لِتَكُونَ زَوْجَةً ثَانِيَةً، وَعَلَى الْفَوْرِ تَفَطَّنَتْ (سَعِيدَةُ) إِلَى أَنَّ عَيْنَ الرَّجُلِ عَلَى مَا تَمْتَلِكُهُ لَا غَيْرَ؛ فَهِيَ تُدْرِكُ أَنَّ عَوَادِي الدَّهْرِ ذَهَبَتْ بِبَصِيصِ الْحُسْنِ الَّذِي كَانَتْ تَتَمَتَّعُ بِهِ فِي صِغَرِهَا، فَمَا الَّذِي يَجْعَلُ الرَّجُلَ يَرْغَبُ بِالزَّوَاجِ مِنْهَا؟! بَلْ إِنَّهَا مُتَيَقِّنَةٌ أَنَّ حَمَاهَا لَا يَحْمِلُ فِي صَدْرِهِ ذَرَّةَ حُبٍّ لَهَا.. وَفَوْقَ هَذَا كُلِّهِ يَعْلَمُ جُلُّ سُكَّانِ الْقَرْيَةِ أَنَّ رَغْبَةَ (عَزِيزٍ) فِي النِّسَاءِ قَدْ تَبَخَّرَتْ ذَاتَ حَادِثٍ.

رَفَضَتْ (سَعِيدَةُ) طَلَبَهُ، مِمَّا جَعَلَ تَصَرُّفَاتِهِ تَنْقَلِبُ رَأْساً عَلَى عَقِبٍ، وَأَصْبَحَ يَتَحَيَّنُ الفُرْصَةَ لِلطَّعْنِ فِي مِهْنَتِهَا وَالنَّيْلِ مِنْ شَرَفِهَا زُورًا وَبُهْتَانًا، لَكِنَّ (سَعِيدَةَ) كَانَتْ تَتَجَاهَلُ مُعَامَلَاتِهِ السَّخِيفَةِ، وَلَا تَعْبَأُ بِمَا يُذِيعُهُ عَنْهَا مِنْ أَقَاوِيلَ، بَلْ أَصْبَحَتْ أَكْثَرَ رَاحَةً عِنْدَمَا انْقَطَعَتْ عَنْهَا زِيَارَاتُهُ الْمُتَكَرِّرَةُ وَهَدَايَاهُ الْمُغْرِضَةُ.

فِي أَحَدِ الْأَيَّامِ وَعَلَى حِينِ غِرَّةٍ، اِخْتَطَفَتِ الْمَنِيَّةُ مَرِيضَةً كَانَتْ تَتَرَدَّدُ عَلَيْهَا وَبِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّ أَهْلَ الْفَقِيدَةِ عَدُّوا الْفَجِيعَةَ قَضَاءَ اللَّهِ وَقَدَرَهُ، لَكِنَّ (عَزِيزًا) زَعَمَ أَنَّ الْحَادِثَ أَمْرٌ مُدَبَّرٌ، فَشَنَّ عَلَى الْأَرْمَلَةِ وَابِلاً مِنَ التُّهَمِ وَأَخَذَ يُضَايِقُهَا بِالتَّهْدِيدِ وَالتَّنْدِيدِ، مُدَّعِيًا أَنَّهَا السَّبَبُ، وَتَوَعَّدَهَا بِتَبْلِيغِ الشُّرْطَةِ مَا لَمْ تُقْلِعْ عَنْ عَمَلِهَا الَّذِي بَاتَ يُشَكِّلُ خَطَرًا عَلَى الْجَمِيعِ، زَاعِمًا أَنَّ هَذَا يُؤَثِّرُ عَلَى سُمْعَةِ أَخِيهِ الْفَقِيدِ وَعَلَى سُمْعَتِهِ مِنْ وَرَائِهِ، فَلَمْ تَجِدِ الْمِسْكِينَةُ بُدًّا مِنَ الِانْفِجَارِ كَبُرْكَانٍ حِمَمُهُ فَضَائِحُ طَالَمَا اخْتَزَنَتْهَا ذَاكِرَتُهَا، حِينَهَا فَقَدَ (عَزِيزٌ) السَّيْطَرَةَ عَلَى أَعْصَابِهِ وَدَفَعَ الْمَرْأَةَ بِكُلّ قُوَّتِهِ، فَسَقَطَتْ فِي فِنَاءِ بَيْتِهَا لَا تُحَرِّكُ سَاكِنًا، أَمَامَ ثُلَّةٍ مِنَ الْجَيْرَانِ وَعَلَى مَرْأًى مِنِ اِبْنِهَا الْأَصْغَرِ الَّذِي أَخَذَ بِيَدِهَا وَهُوَ يُتَمْتِمُ بِكَلِمَاتٍ تَمَازَجَ التَّوَعُّدُ فِيهَا بِالدُّعَاءِ عَلَى عَمِّهِ، وَعَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ دُمُوعَ الْعَاجِزِ، وَنَظْرَاتُهُ الْمَقْهُورَةُ تَفِيضُ حِقْدًا وَكَرَاهِيَةً.

تَقَدَّمَتْ إِحْدَى الْجَارَاتُ تَتَحَسَّسُ نَفَسَ الطَّبِيبَةِ وَنَبْضَهَا؛ لِتَتَأَكَّدَ أَنَّهَا فِي حَالَةِ إِغْمَاءٍ، فَرَشَّتْ وَجْهَهَا بِالْمَاءِ وَأَخَذَتْ تُدَلِّكُ يَدَيْهَا وَتَفْرِكُ عَيْنَيْهَا وَتُهَدْهِدُهَا لِتَعُودَ إِلَى وَعْيِهَا؛ وَبَعْدَ أَنْ بَاءَتْ كُلُّ مُحَاوَلَاتِهَا بِالفَشَلِ، أَسْرَعَ أَحَدُ الْجَيْرَانِ لِتَجْهِيزِ عَرَبَتِهِ الخَشَبِيَّةِ الَّتِي تَقُودُهَا أَتَانُهُ الْعَجْفَاءُ لِحَمْلِ (سَعِيدَةَ) إِلَى الْعِيَادَةِ الَّتِي تَبْعُدُ مَسَافَةَ مِيلَيْنِ عَنِ الْقَرْيَةِ.

وَفِيهَا اسْتَعَادَتِ الطَّبِيبَةُ عَافِيَتَهَا وأَفْرِغَتِ مَا فِي جُعْبَتِهَا لِلْمُمَرِّضَةِ الَّتِي أَصَرَّتْ عَلَى تَبْلِيغِ الْعَدَالَةِ، وَبَيْنَ أَخْذٍ وَرَدٍّ اِنْتَهَى الْأَمْرُ بِسَجْنِ (عَزِيزٍ)، الَّذِي لَمْ يَكُنْ عَزِيزًا يَوْمًا؛ لِيَقْضِيَ أَيَّامًا سَوْدَاءَ وَرَاءَ الْقُضْبَانِ، وَعَادَتِ الْمِيَاهُ إِلَى مَجَارِيهَا؛ لِتَتَذَوَّقَ الْأُسْرَةُ طُعْمَ الْخَيْرَاتِ الَّتِي يُنْعِمُ بِهَا الْبُسْتَانُ الْعَزِيزُ، وَأَخِيرًا فَتَحَتِ السَّعَادَةُ ذِرَاعَيْهَا لِـ(سَعِيدَةَ) وَوَلَدَيْهَا، وَأَدْبَرَتِ الْأَيَّامُ الْكَئِيبَةُ إِلَى غَيْرِ رَجْعَةٍ.

.....

بِالبِرّ أَصْبَحت طَبِيبَةً

(سَلْمَى) فَتَاةٌ طَمُوحَةٌ عَلَى الرَّغْمَ مِنْ ظُرُوفِهَا الْمَعِيشِيَةِ الْقَاسِيَةِ، فَكَثِيرًا مَا تَخَلَّتْ عَنْهَا أَحْلَامُهَا الْبَسِيطَةُ فِي صِغَرِهَا، لَكِنَّهَا اسْتَطَاعَتْ أَنْ تُحَقِّقَ أَضْعَافَ مَا كَانَتْ تَحْلُمُ بِهِ حِينَ كَبُرَتْ، وَذَلِكَ بِسَبَبِ اِجْتِهَادِهَا وَمُثَابَرَتِهَا، وَتَشْجِيعِ وَالِدَيْهَا وَأَسَاتِذَتِهَا فَأَصْبَحَتْ سَنَدًا لِكُلِّ مُحْتَاجٍ، وَلَكِنَّ صَوْتَ وَالِدِهَا (حَمْدُونَ) لَمْ يُفَارِقْهَا يَوْمًا.

كَانَ (حَمْدُونُ) رَجُلاً فَقِيرًا، كُلُّ أَمَلِهِ فِي الْحَيَاةِ هُوَ إِشْبَاعُ بُطُونِ أَبْنَائِهِ السَّبْعَةِ لَمْ يَحْلُمْ يَوْمًا بِشَيْءٍ لِنَفْسِهِ، عَاشَ رَاضِيًا بِالْحِرْمَانِ مُقَابِلَ أَنْ يُوَفِّرَ كُلَّ يَوْمٍ قُوتًا يَسُدُّ بِهِ رَمَقَ أُسْرَتِهِ النَّاشِئَةِ.

(سَلْمَى) بِنْتُهُ الوُسْطَى، كَانَتْ تَتَشَبَّثُ بِمِعْطَفِهِ الْبُنِّيِّ الَّذِي يُلَامِسُ رُكْبَتَيْهِ الْهَزِيلَتَيْنِ؛ لِتَسْتَعِينَ بِهِ عَلَى خَطَوَاتِهَا الْأُولَى فِي الْحَيَاةِ، كَانَتْ مُتَعَلِّقَةً بِوَالِدِهَا أَكْثَرَ مِنْ تَعَلُّقِ إِخْوَتِهَا بِهِ؛ فَمُنْذُ وِلَادَتِهَا كَانَتْ تَسْكُتُ عَنِ الْبُكَاءِ حِينَ يَحْمِلُهَا بَيْنَ ذِرَاعَيْهِ وَيُدَاعِبُ ذِقْنَهَا بِأُصْبُعِهِ وَهُوَ يُنْشِدُ لَهَا كَلِمَاتٍ لَا يَكَادُ السَّامِعُ يَفْهَمُ مِنْهَا إِلَّا لَحْنًا مَبْحُوحًا، وَلَمْ تَكُنْ تَمْلَأُ الْبَيْتَ صُرَاخًا مِثْلَ إِخْوَتِهَا حِينَ تَنْهَمِكُ أُمُّهَا فِي أَشْغَالِ الْبَيْتِ أَوْ تَذْهَبُ لِزِيَارَةِ الْجَيْرَانِ وَالْأَقَارِبِ، فَقَدْ كَانَ وُجُودُ وَالِدِهَا فِي الْبَيْتِ كَافِيًا.

بَلَغَتْ (سَلْمَى) مِنَ الْعُمْرِ مَا يَسْمَحُ لَهَا بِالدُّخُولِ إِلَى الْمَدْرَسَةِ؛ فَذَهَبَتْ يَوْمَ الافْتِتَاحِ رُفْقَةَ أَخِيهَا الَّذِي يَكْبُرُهَا بِسَنَتَيْنِ، لِتَكْتَشِفَ عَالَمًا جَدِيدًا؛ رَأَتْ جَمْعًا غَفِيرًا مِنَ الْأَطْفَالِ، اِنْقَسَمُوا إِلَى صَفَّيْنِ أَمَامَ بَابٍ ضَخْمٍ يُفْضِي إِلَى سُورٍ مُمْتَدٍّ يَحْجُبُ مَا

بِدَاخِلِهِ، بِإِشَارَةٍ مِنْ أَخِيهَا انْضَمَّتْ إِلَى صَفِّ الْبَنَاتِ، وَالْتَحَقَ أَخُوهَا بِصَفِّ الْبَنِينَ وَبَعْدَ مُدَّةٍ وَجِيزَةٍ فُتِحَ الْجُزْءُ الْأَكْبَرُ مِنَ الْبَابِ، وَخَرَجَ مِنْهُ رَجُلٌ، مَا إِنْ رَأَتْ (سَلْمَى) مَلَامِحَهُ الْمُتْعَبَةِ حَتَّى تَذَكَّرَتْ وَالِدَهَا، لَكِنْ سُرْعَانَ مَا أَدْرَكَتْ أَنَّهُ يَخْتَلِفُ عَنْهُ كَثِيرًا؛ صَفَّقَ الرَّجُلُ مَرَّتَيْنِ وَقَطَّبَ حَاجِبَيْهِ، وَأَمَرَ الْأَطْفَالَ بِالسُّكُوتِ، وَعَيْنَاهُ الْجَاحِظَتَانِ تُهَدِّدُ كُلَّ طِفْلٍ لَمْ يَقِفْ فِي الصَّفِّ وُقُوفًا مُعْتَدِلًا، ثُمَّ أَعْطَى الْإِذْنَ بِالدُّخُولِ لِصَفِّ الْبَنِينَ، وِحِينَ دَخَلُوا جَمِيعًا أَذِنَ لِلْبَنَاتِ أَيْضًا.

دَخَلَتْ (سَلْمَى) لِتَجِدَ نَفْسَهَا فِي سَاحَةٍ شَاسِعَةٍ تَتَوَسَّطُ مَجْمُوعَةً مِنَ الْبِنَايَاتِ الْمُنْتَظَمَةِ الَّتِي تَتَخَلَّلُهَا نَبَاتَاتٌ وَأَشْجَارٌ أَضْفَتْ عَلَيْهَا رَوْنَقًا جَذَّابًا، وَفِي مَرْكَزِهَا عَمُودٌ حَدِيدِيٌّ، اِصْطَفَّ الْأَطْفَالُ أَمَامَهُ حَسْبَ أَعْمَارِهِمْ، وَبَعْدَ قَلِيلٍ تَقَدَّمَ بَعْضُ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ يَرْتَدُونَ أَزْيَاءً أَنِيقَةً، يَحْمِلُ أَحَدُهُمْ الْعَلَمَ الْوَطَنِيَّ الَّذِي حَدَّثَهَا أَبُوهَا عَنْهُ لَمَّا رَأَتْهُ ذَاتَ يَوْمٍ فِي التِّلْفَازِ وَسَأَلَتْهُ عَنْهُ، كَانَ مُعْظَمُ الْأَطْفَالِ الَّذِينَ يَقِفُونَ فِي صَفِّ (سَلْمَى) صَامِتِينَ، وَبَعْضُهُمْ يُحَرِّكُ شَفَتَيْهِ تَمَاشِيًا مَعَ صَوْتِ التَّلَامِيذِ الَّذِينَ يُرَدِّدُونَ النَّشِيدَ الْوَطَنِيَّ، أَمَّا هِيَ فَكَانَتْ تَحْفَظُهُ عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ مُنْذُ أَنْ سَمِعَتْ أَخَاهَا يُرَدِّدُهُ ذَاتَ مَسَاءٍ.

تَوَزَّعَ التَّلَامِيذُ عَلَى الْغُرَفِ الْكَبِيرَةِ الَّتِي كَانَتْ تَشُدُّ اِنْتِبَاهَ (سَلْمَى)، وَلَمْ تَبْرَحْ مَكَانَهَا مَعَ أَقْرَانِهَا حَتَّى تَقَدَّمَتْ إِلَيْهِمْ سَيِّدَةٌ تَمْلَأُ وَجْهَهَا الْبَشَاشَةُ، فَأَلْقَتْ عَلَيْهِمْ التَّحِيَّةَ، وَطَلَبَتْ مِنْهُمْ مُرَافَقَتَهَا، فَغَلَبَ الظَّنُّ عَلَى (سَلْمَى) أَنَّهَا مُعَلِّمَتُهُمْ. ذَهَبُوا مَعَهَا إِلَى حُجْرَةٍ مَلِيئَةٍ بِالْكَرَاسِي وَالطَّاوِلَاتِ الَّتِي تَشَكَّلَتْ عَلَى هَيْئَةِ حَلَقَةٍ، لَمْ يَكُنْ كُلُّ الْأَطْفَالِ يُحْسِنُونَ الْجُلُوسَ؛ فَبَعْضُهُمْ جَلَسَ عَلَى الطَّاوِلَةِ وَوَضَعَ رِجْلَيْهِ عَلَى الْكُرْسِيِّ، وَبَعْضُهُمْ جَلَسَ عَلَى الْكُرْسِيِّ وَأَدْخَلَ رِجْلَيْهِ فِي دُرْجِ الطَّاوِلَةِ، وَأَقْبَلَتِ

الْمُعَلِّمَةُ تُعَلِّمُهُمْ كَيْفِيَةَ الْجُلُوسِ بِعَطْفٍ وَحَنَانٍ، ثُمَّ أَخَذَتْ تُقَدِّمُ الْحَلْوَى لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بَعْدَ أَنْ يُفْصِحَ عَنْ اِسْمِهِ..

كَانَ يَوْمًا مَشْهُودًا فِي حَيَاةِ (سَلْمَى)؛ مَلِيئًا بِالاكْتِشَافَاتِ وَالْأَصْدِقَاءِ وَالْمَرَحِ.. عَادَتْ إِلَى مَنْزِلِهَا وَأَخَذَتْ تَرْوِي لِأُمِّهَا كُلَّ مَا رَأَتْهُ وَمَا سَمِعَتْهُ وَمَا شَعَرَتْ بِهِ، ثُمَّ انْتَظَرَتْ أَبَاهَا وَكُلُّهَا شَوْقٌ لِتَرْوِيَ لَهُ مَا حَدَّثَتْ بِهِ وَالِدَتَهَا وَزِيَادَةً؛ وَمَا إِنْ وَصَلَ مَسَاءً حَتَّى هَرَعَتْ نَحْوَهُ، فَقَبَّلَتْ يَدَهُ، وَشَرَعَتْ تُحَدِّثُهُ، وَهُوَ يُنْصِتُ إِلَيْهَا تَارَةً وَيَنْشَغِلُ بِخَلْعِ بَذْلَةِ الْعَمَلِ تَارَةً أُخْرَى، ثُمَّ مَدَّ يَدَهُ إِلَى الْإِبْرِيقِ يَتَفَقَّدُ مَا بَقِيَ فِيهِ مِنْ شَايِ الصَّبَاحِ، فَجَلَسَتْ بِجَانِبِهِ وَهِيَ تَطْلُبُ مِحْفَظَةً وَكُتُبًا وَكُرَّاسَاتٍ وَأَقْلَامًا..

كَانَتْ تَتَحَدَّثُ مَعَهُ وَهِيَ تَلْعَبُ بِرُقْعَةٍ مِنَ الرُّقَعِ الْمَوْجُودَةِ عَلَى مِعْطَفِهِ الَّذِي شَابَتْهُ صُفْرَةٌ بَاهِتَةٌ، فَهَمَّتْ أَنْ تَسْأَلَهُ عَنْ عَدَمِ تَغْيِيرِهِ لِهَذَا الْمِعْطَفِ الرَّثِّ، الَّذِي أَلِفَتْهُ عَلَى كَتِفَيْهِ كُلَّ شِتَاءٍ، لَكِنَّهَا نَسِيَتْ ذَلِكَ حِينَ أَخْبَرَهَا أَنَّ مَا تَطْلُبُهُ مَوْجُودٌ تَحْتَ صُنْدُوقِ الْمَلَابِسِ، فَقَدِ اِشْتَرَاهُ أَمْسًا وَخَبَّأَهُ حَتَّى لَا يَعْبَثَ بِهِ أَخُوهَا الصَّغِيرُ.

لَيْلَتَهَا لَمْ يَتَنَاوَلِ الْأَبُ الْعَشَاءَ، وَلَمْ يُشَاهِدِ التِّلْفَازَ كَعَادَتِهِ، بَلْ لَمْ يُعِرْ أَيَّ اهْتِمَامٍ لِأَخْبَارِ الْمَسَاءِ الَّتِي لَمْ يَكُنْ يُفَوِّتُ مِنْهَا كَلِمَةً وَاحِدَةً، ظَلَّ شَارِدًا يَرْمُقُ الْبَابَ مِنْ حِينٍ لِآخَرَ، كَأَنَّهُ يَنْتَظِرُ أَحَدًا لَا يُرِيدُهُ أَنْ يَأْتِيَ، وَلَمْ يَلْبَثْ طَوِيلاً حَتَّى طُرِقَ الْبَابُ، وَدَخَلَ جَارُهُ بَعْدَ أَنِ اِسْتَأْذَنَ، ثُمَّ أَخَذَ التِّلْفَازَ الَّذِي دَفَعَ مُقَابِلَهُ مَسَاءَ الْبَارِحَةِ. لَمْ يَكُنْ الْجَارُ مُهْتَمًّا لِتَرْحِيبِ (حَمْدُونَ) حِينَ دَعَاهُ لِتَنَاوُلِ حَسَاءِ الشَّعِيرِ فَقَدْ كَانَ كُلُّ تَرْكِيزِهِ مُنْصَبًّا عَلَى التِّلْفَازِ الَّذِي وَعَدَ بِهِ أَوْلَادَهُ مُنْذُ زَمَنٍ، وَقَدْ تَرَكَهُمْ قَبْلَ قَلِيلٍ مُتَحَمِّسِينَ لِقُدُومِهِ كَأَنَّهُمْ يَنْتَظِرُونَ مَوْلُودًا جَدِيدًا، فَهُمْ لَنْ يَتَشَتَّتُوا بَعْدَ الْيَوْمِ بَيْنَ مَنَازِلِ الْجَيْرَانِ؛ لِمُشَاهَدَةِ الْأَفْلَامِ الْكَرْتُونِيَّةِ وَالْبَرَامِجِ الْكُومِيدِيَّةِ...

بِالرَّغْمِ مِنْ حَجْمِ التِّلْفَازِ الْكَبِيرِ وَكُتْلَتِهِ الزَّائِدَةِ، حَمَلَهُ الْجَارُ عَلَى كَتِفِهِ الْمَفْتُولِ، كَأَنَّهُ يَحْمِلُ غَرَضًا خَفِيفًا، فَقَدْ أَلِفَ حَمْلَ الْبَضَائِعِ الثَّقِيلَةِ فِي أَشْغَالِهِ الْيَوْمِيَةِ، قفلَ خَارِجًا وَأَسَارِيرُهُ مُتَهَلِّلَةٌ، تَارِكًا خَلْفَهُ بَيْتَ (حَمْدُونَ) حَزِينًا، وَقَدْ خَيَّمَ الصَّمْتُ عَلَى الْمَكَانِ، إِلَّا (سَلْمَى) لَمْ تَحْزَنْ؛ فَأَدَوَاتُهَا الْمَدْرَسِيَّةُ الَّتِي كَانَتْ تُرَتِّبُهَا فِي الْمِحْفَظَةِ أَهَمُّ عِنْدَهَا مِنَ التِّلْفَازِ، وَلٰكِنَّهَا حَاوَلَتْ تَلْطِيفَ الْجَوِّ وَتَخْفِيفَ الْحُزْنِ؛ فَأَقْبَلَتْ تَعِدُ وَالِدَيْهَا بِأَنْ تَشْتَرِيَ لَهُمَا تِلْفَازًا فَاخِرًا، وَمَنْزِلًا وَاسِعًا يَتَكَوَّنُ مِنْ غُرَفٍ كَثِيرَةٍ، وَمَطْبَخٍ مُجَهَّزٍ، وَبَهْوٍ مُؤَثَّثٍ وَفِنَاءٍ مَلِيءٍ بِالْأَزْهَارِ، وَبَاحَةٍ خَلْفِيَةٍ.. حَالَمَا تَكْبُرُ وَتَعْمَلُ. لَمْ تَتْرُكْ كَلِمَاتُهَا أَثَرًا يُذْكَرُ؛ فَلَمْ تَسْتَطِعْ إِيقَافَ الدُّمُوعِ الْحَارَّةِ الَّتِي سَالَتْ عَلَى وَجْنَتَيْ وَالِدَتِهَا وَهِيَ تُطَالِعُ الْفَرَاغَ الَّذِي تَرَكَهُ التِّلْفَازَ فِي زَاوِيَةِ الْغُرْفَةِ، أَمَّا (حَمْدُونُ) فَقَدْ أَخْفَى وَجْهَهُ الْكَئِيبَ بِيَدَيْهِ الذَّابِلَتَيْنِ، مُحَاوِلًا تَجَنُّبَ النَّظَرِ إِلَى مَا حَوْلَهُ، وَأَمَّا إِخْوَتُهَا فِمِنْهُمْ مَنْ غَطَّ فِي سُبَاتٍ عَمِيقٍ لَمْ يَكُنْ يَنْعَمُ بِهِ سَابِقًا؛ بِسَبَبِ صَوْتِ التِّلْفَازِ الْمُزْعِجِ، وَمِنْهُمْ مَنْ عَلَتْ وَجْهَهُ الدَّهْشَةُ بَعْدَ أَنْ تَعِبَ مِنْ طَرْحِ الْأَسْئِلَةِ الْعَقِيمَةِ عَنْ مَآلِ التِّلْفَازِ، وَسَالَتْ عَلَى خَدِّ أُخْتِهَا الْكُبْرَى دَمْعَةٌ بَعْدَ أَنْ لَمَحَتْ عَبَرَاتِ أُمِّهَا..

مَرَّتْ الْأَيَّامُ وَ(سَلْمَى) تُلَاحِظُ أَنَّ أَبَاهَا لَمْ يَعُدْ قَادِرًا عَلَى مَضْغِ الْخُبْزِ إِلَّا إِذَا أَغْرَقَهُ فِي الْجَفْنَةِ مَرَّةً تِلْوَ أُخْرَى، حَتَّى يَتَشَبَّعَ بِالْمَرَقِ الْمَالِحِ، وَيَكْتَفِي أَحْيَانًا بِشُرْبِ الْحَسَاءِ الْحَارِّ بِالْفُلْفُلِ الْبَلَدِيِّ الَّذِي يُغَطِّي نُقْصَ التَّوَابِلِ الْأُخْرَى. بَعْدَ أَنْ لَعِقَ الْأَبُ الْقَصْعَةَ وَوَضَعَهَا جَانِبًا، اِقْتَرَبَتْ مِنْهُ (سَلْمَى) وَهُوَ يُحَاوِلُ إِخْرَاجَ عُلْبَةِ الدَّوَاءِ مِنْ أَحَدِ الْفَجَوَاتِ الْمَوْجُودَةِ بَيْنَ لَبِنَاتِ الْجِدَارِ الْمُتَصدِّعِ، قَدَّمَتْ لَهُ كَأْسًا مِنَ الْمَاءِ لِيَسْتَعِينَ بِهِ عَلَى تَنَاوُلِ الدَّوَاءِ، ثُمَّ سَأَلَتْهُ مُشْفِقَةً عَلَى حَالِهِ: "مَاذَا يُؤْلِمُكَ يَا أَبِي؟"

فَابْتَسَمَ ابْتِسَامَتَهُ الْمَأْلُوفَةَ الَّتِي تَبْعَثُ الطُّمَأْنِينَةَ فِي نَفْسِ ابْنَتِهِ، وَأَمْسَكَ يَدَيْهَا ثُمَّ عَانَقَهَا.

كَانَتْ (سَلْمَى) تِلْمِيذَةً مُجْتَهِدَةً، فَكَثِيرًا مَا أَسْعَدَتْ وَالِدَيْهَا بِحُصُولِهَا عَلَى دَرَجَاتٍ مُمَيَّزَةٍ، وَبَيْنَ الْحِينِ وَالْآخَرِ كَانَتْ تُحْضِرُ مَعَهَا جَوَائِزَ رَمْزِيَّةً، تَمْنَحُهَا لَهَا الْمُعَلِّمَةُ. وَعِنْدَمَا كَتَبَتْ أَوَّلَ قِصَّةٍ شَجَّعَتْهَا مُعَلِّمَتُهَا، وَأَرْسَلَتْ مُحَاوَلَتَهَا إِلَى مُسَابَقَةٍ بَيْنَ الْمَدَارِسِ، لِيُبَشِّرَهَا الْمُدِيرُ بِالْفَوْزِ بَعْدَ فَتْرَةٍ وَجِيزَةٍ.

فَأَخَذَتْ شَهَادَتَهَا وَالظَّرْفَ الْمُرْفَقَ مَعَهَا، وَرَكَضَتْ إِلَى مَنْزِلِهَا، لِتَرَى السَّعَادَةَ تَنْبَعُ مِنْ جَوَارِحِ وَالِدَيْهَا؛ اِحْتَضَنَ (حَمْدُونُ) بِنْتَهُ، وَحَمَلَهَا عَلَى كَتِفَيْهِ وَهُوَ يَضْحَكُ وَيَدْعُو لَهَا بِالنَّجَاحِ فِي حَيَاتِهَا.. كَانَ مَسْرُورًا بِحُصُولِهَا عَلَى الْجَائِزَةِ الْأُولَى، أَمْسَكَ الشَّهَادَةَ وَتَمَعَّنَ فِيهَا كَثِيرًا كَأَنَّهُ يُحْسِنُ الْقِرَاءَةَ، ثُمَّ قَلَبَهَا رَأْسًا عَلَى عَقِبٍ كَأَنَّهُ تَفَطَّنَ إِلَى وَضْعِهَا الصَّحِيحِ أَخِيرًا، لَمْ يَكُنْ مُهْتَمًّا لِلظَّرْفِ الْمُغْلَقِ وَمَا يَحْتَوِيهِ، أَمَّا أُمُّهَا فَقَدْ أَطْلَقَتِ الْعَنَانَ لِزُغْرُودَةٍ مَلَأَتْ أَجْوَاءَ الْمَنْزِلِ.

يَوْمَهَا رَافَقَ (حَمْدُونُ) بِنْتَهُ إِلَى الْجَزَّارِ فَاشْتَرَى لَحْمًا، ثُمَّ ذَهَبَا إِلَى الْخَضَّارِ فَاشْتَرَى بُرْتُقَالًا وَخِسًّا. وَغَنَّتْ الْأُمُّ لَحْنَهَا الْمُفَضَّلَ وَهِيَ تَطْهُو طَعَامًا شَهِيًّا مَلَأَ الْبَيْتِ بِرَائِحَتِهِ الزَّكِيَّةِ الَّتِي لَمْ تَكُنْ تُشَمُّ إِلَّا فِي الْأَعْيَادِ، بَعْدَ الْعَشَاءِ سَهِرَ الْجَمِيعُ وَكُلُّهُمْ آذَانٌ صَاغِيَةٌ إِلَى قِصَّةٍ كَتَبَتْهَا أَدِيبَةُ الْمَنْزِلِ الَّتِي لَمْ تُنَاهِزْ الْعَشْرَ سَنَوَاتٍ.

ضَحْكَةُ الوَالِدِ الَّتِي أَضَاءَتْ الْبَيْتَ يَوْمَهَا، أَسْعَدَتْ ابْنَتَهُ، فَتَمَنَّتْ أَنْ تَكُونَ سَعَادَتُهُ دَائِمَةً، وَوَعَدَتْهُ بِأَنْ تَشْتَرِيَ لَهُ بِالظَّرْفِ الْمُقْبِلِ مِعْطَفًا جَدِيدًا وَحِذَاءً يَقِيهِ بَرْدَ الشِّتَاءِ، اِبْتَسَمَ (حَمْدُونُ) حِينَ سَمِعَ كَلَامَهَا وَقَالَ بِصَوْتٍ خَجُولٍ يَشُوبُهُ الْمُزَاحُ: "أُرِيدُ أَسْنَانًا يَا صَغِيرَتِي".

تَشَجَّعَتْ (سَلْمَى) عَلَى الْمُشَارَكَةِ فِي الْمُسَابَقَاتِ، فَكَانَتْ تُرْسِلُ مُشَارَكَاتِهَا كُلَّمَا سَمِعَتْ عَنْ مُسَابَقَةٍ قَصَصِيَّةٍ، لَكِنَّهَا لَمْ تَحْصُلْ عَلَى جَائِزَةٍ أُخْرَى، رُبَّمَا لِأَنَّهَا لَمْ تَكْتُبْ إِلَّا مِنْ أَجْلِ الْجَائِزَةِ، وَتَحْدِيدًا مِنْ أَجْلِ الْقِيمَةِ الْمَادِّيَةِ، فَكَانَتْ تَتَسَرَّعُ فِي كِتَابَةِ الْقِصَصِ دُونَ السَّيْرِ عَلَى حَبْكَةٍ مَنْطِقِيَّةٍ وَعُقْدَةٍ مُنَاسِبَةٍ وَأَحْدَاثٍ مُتَسَلْسِلَةٍ، وَلَمْ تَكُنْ تَنْتَبِهُ فِي غَالِبِ الْأَحْيَانِ إِلَى الْأَخْطَاءِ اللُّغَوِيَّةِ وَالْهَفَوَاتِ الْإِمْلَائِيَّةِ.. فَشِلَتْ فِي إِنْجَازِ وَعْدِهَا وَتَحْقِيقِ أَمَلِ وَالِدِهَا، فَكَانَتْ تُؤَجِّلُ ذَلِكَ كُلَّمَا ظَهَرَتْ نَتَائِجُ الْمُسَابَقَةِ، وَتُحَدِّثُ نَفْسَهَا بِأَنَّهَا سَتُحَقِّقُ وَعْدَهَا لِأَبِيهَا فِي الْمَرَّةِ الْمُقْبِلَةِ.

كَانَتْ دَائِمًا تَسْتَرِقُ النَّظَرَ لِوَالِدِهَا أَثْنَاءَ الْعَشَاءِ، فَيَنْتَابُهَا الْحُزْنُ إِذَا رَأَتْهُ يَلُوكُ قِطْعَةَ الْخُبْزِ طَوِيلًا حِينَ يَجِفُّ الصَّحْنُ، لَيَبْتَلِعَهَا بِصُعُوبَةٍ.. تُلَاحِظُهُ وَهُوَ يَخْرُجُ فَجْرًا لِيَعُودَ مُنْهَكًا وَالْمَسَاءُ قَدْ أَسْدَلَ ظِلَالَهُ، تُدْرِكُ أَنَّ عَمَلَهُ شَاقٌّ مِنْ خِلَالِ مَا يَبْدُو عَلَيْهِ مِنْ إِرْهَاقٍ وَذُبُولٍ، وَمِنْ رَوَائِحِ الْعَرَقِ الَّتِي تَمْلَأُ الْبَيْتَ بِمُجَرَّدِ دُخُولِهِ.. يَعْتَصِرُ قَلْبُهَا أَلَمًا حِينَ يَبِيتُ لَيْلَتَهُ وَسُعَالُهُ يَصِلُ إِلَى كُلِّ رُكْنٍ مِنْ أَرْكَانِ الْبَيْتِ، كَانَتْ صِحَّتُهُ تَتَهَالَكُ شَيْئًا فَشَيْئًا مِنْ أَجْلِ أُسْرَتِهِ.

تَرَعْرَعَتْ الْفَتَاةُ وَقَدْ أَخْمَدَ الْعَوَزُ كَثِيرًا مِنْ أَحْلَامِهَا قَبْلَ أَنْ تَشِبَّ، لَكِنَّهَا حَقَّقَتْ مَا تَسْتَطِيعُ؛ فَقَدْ تَفَوَّقَتْ فِي الثَّانَوِيَةِ بِجَدَارَةٍ، وَدَخَلَتْ الْجَامِعَةَ، وَتَحَصَّلَتْ عَلَى التَّخَصُّصِ الَّذِي تُرِيدُ، وَسَتَكُونُ بَعْدَ سَنَوَاتٍ قَلِيلَةٍ طَبِيبَةَ أَسْنَانٍ.

بَاتَتْ تُقِيمُ فِي الْإِقَامَةِ الْجَامِعِيَّةِ، وَتَتَحَيَّنُ الْعَوْدَةَ إِلَى مَنْزِلِهَا حَالَمَا تَقْبِضُ الْمِنْحَةَ السَّنَوِيَّةَ، لَنْ تَشْتَرِيَ شَيْئًا غَيْرَ أَدَوَاتِ الدِّرَاسَةِ، كَانَتْ تَكْتَفِي بِوَجَبَاتِ الْمَطْعَمِ الْجَامِعِيِّ، وَكَثِيرًا مَا كَانَتْ تَصُومُ يَوْمَ الْخَمِيسِ، وَقَدْ تَصُومُ الِاثْنَيْنَ أَيْضًا، لَمْ تَكُنْ تُرَافِقُ زَمِيلَاتِهَا إِلَى الْمَحَلَّاتِ وَالْأَسْوَاقِ وَزِيَارَةِ الْمَعَالِمِ الْأَثَرِيَةِ خِلَالَ عُطْلَةِ الْأُسْبُوعِ، بَلْ

كَانَتْ تَشْغَلُ نَفْسَهَا بِمُرَاجَعَةِ مَا حَفِظَتْهُ مِنَ الْقُرْآنِ فِي الْعُطْلَةِ الصَّيْفِيَةِ، وَتُدَوِّنُ أَبْرَزَ الْأَحْدَاثِ الْأُسْبُوعِيَةِ الَّتِي مَرَّتْ بِهَا فِي مُذَكِّرَتِهَا، وَتُحَاوِلُ فَكَّ أَعْمِدَةِ التَّسْلِيَةِ فِي صَفَحَاتِ الْجَرَائِدِ الْمُلْقَاةِ عَلَى طَاوِلَاتِ النَّادِي الْجَامِعِيِّ.. وَتَتَرَقَّبُ تَارِيخَ اسْتِلَامِ الْمِنْحَةِ الْمُوَالِيَةِ، وَتَسْأَلُ مَنْ تَثِقُ بِمَعْرِفَتِهِمْ عَنْ عِيَادَةِ طِبِّ الْأَسْنَانِ الْأَفْضَلِ فِي الْبَلَدِ. لَنْ يَنْتَظِرَ وَالِدُهَا تَخَرُّجَهَا لِلْحُصُولِ عَلَى فَمٍ كَامِلٍ، سَتَعُودُ إِلَيْهِ حِينَ تَقْبِضُ مِنَحَ سَنَةٍ كَامِلَةٍ فَتَجْمَعُهَا الْوَاحِدَةَ تِلْوَ الْأُخْرَى، سَتَرْجِعُ إِلَى الْمَنْزِلِ لِتُمْسِكَ يَدَهُ مِثْلَمَا كَانَ يُمْسِكُ يَدَهَا. يَدٌ نُقِشَتْ فِيهَا كُلُّ خَرَائِطِ الْأَشْغَالِ الشَّاقَّةِ، سَتُمْسِكُ بِهَا وَتُرَافِقُهُ إِلَى طَبِيبِ الْأَسْنَانِ، وِحِينَ يُصْبِحُ لَهُ فَمٌ جَدِيدٌ سَتَطْهُو لَهُ طَعَامًا كَانَ يَشْتَمُّ رَائِحَتَهُ فِي مَطَاعِمِ الْمَدِينَةِ فَيُشِيحُ بِوَجْهِهِ خَشْيَةَ أَنْ تَشْتَهِيهِ نَفْسُهُ وَهُوَ الْمُعْدَمُ الَّذِي يُعِيلُ أَطْفَالاً لَا تُشْبِعُهُمُ الْجُيُوبُ الْفَارِغَةُ.

سَتَعُودُ إِلَيْهِ طِفْلَةً لَمْ تَكْبُرْ، طِفْلَةً سَمِعَتْهُ يَوْمًا يُسِرُّ إِلَيْهَا بِحُلْمِهِ الْبَسِيطِ، كَمَا يُسِرُّ طِفْلٌ بَرِيءٌ لِوَالِدِهِ بِطَلَبَاتِهِ الْمُعْجِزَةِ عَلَى بَسَاطَتِهَا.. كَانَتْ سَتَقْتَنِي لَهُ مِعْطَفًا وَحِذَاءً وَأَسْنَانًا.. كَانَتْ سَتَشْتَرِي لَهُ تِلْفَازًا مِنَ الطِّرَازِ الْحَدِيثِ، تِلْفَازًا لَا يَسْكُتُ عَنْ بَثِّ الْأَخْبَارِ، لِيَتَمَكَّنَ مِنْ مُشَاهَدَتِهَا فِي أَيِّ وَقْتٍ وَبِكُلِّ الزَّوَايَا وَبِجَمِيعِ الْأَلْوَانِ..

كَانَتْ (سَلْمَى) تُبْحِرُ فِي تَصَوُّرِهَا عَنِ الْمُسْتَقْبَلِ؛ فَتَرَى نَفْسَهَا وَهِيَ تَسْقِي النَّخْلَةَ الَّتِي تَتَوَسَّطُ فِنَاءَ الْمَنْزِلِ الْجَدِيدِ، وَتُشَذِّبُ مَا حَوْلَهَا مِنْ نَبَاتَاتِ الزِّينَةِ لِتَبْقَى مُحَافِظَةً عَلَى أَشْكَالِهَا الْهَنْدَسِيَةِ الْجَمِيلَةِ. كَانَتْ تَرَى أُمَّهَا تُحَضِّرُ الْعَشَاءَ فَتُعِدُّ مَعَهَا بَعْضَ الْأَطْبَاقِ، وَتَدْعُو أَبَاهَا وَإِخْوَتَهَا لِلْجُلُوسِ عَلَى الْمَائِدَةِ فِي الْبَهْوِ الْوَاسِعِ الذي يفيض بالسمر، كَانَ مَقْعَدُهَا يُجَاوِرُ مَقْعَدَ وَالِدِهَا دَائِمًا، تَتَصَوَّرُ نَفْسَهَا كَمْ أَصَرَّتْ عَلَيْهِ حَتَّى أَقْنَعَتْهُ بِالتَّخَلِّي عَنْ أَشْغَالَ الْبِنَاءِ، فَقَدْ أَصْبَحَ بِاسْتِطَاعَتِهَا أَنْ تُلَبِّيَ كُلَّ حَاجِيَاتِ الْبَيْتِ.. كَثِيرًا مَا كَانَتْ تَتَجَوَّلُ فِي الْقَادِمِ مِنَ الْأَيَّامِ، فَيَقْطَعُ تِجْوَالَهَا

أَذَانُ الْمَغْرِبِ أَوْ نِدَاءُ صَدِيقَاتِهَا لِلذَّهَابِ إِلَى الْمَطْعَمِ لِتَنَاوُلِ الْعَشَاءِ أَوْ صَوْتِ الْمُنَبِّهِ الَّذِي اتَّخَذَتْهُ مُعِينًا لِضَبْطِ بَرْنَامَجِهَا الْيَوْمِيِّ..

كَانَتْ عَجَلَةُ الْأَيَّامِ تَدُورُ حَثِيثَةً حِينًا وَبَطِيئَةً أَحْيَانًا، وَشَوْقُ (سَلْمَى) إِلَى أَهْلِهَا يَتَزَايَدُ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ، لَمْ يَكُنْ بِاسْتِطَاعَتِهَا أَنْ تَعُودَ إِلَيْهِمْ فِي الْإِجَازَاتِ الْمَوْسِمِيَّةِ؛ نَظَرًا لِبُعْدِ الْمَسَافَةِ وَسِعْرِ التَّذَاكِرِ الْمُكْلِفِ، فَكَانَتْ تَقْضِي إِجَازَتَهَا بَيْنَ الْحَيِّ الْجَامِعِيِّ وَتَلْبِيَةِ دَعَوَاتِ صَدِيقَاتِهَا اللَّوَاتِي يَسْكُنَّ غَيْرَ بَعِيدٍ عَنْ الْإِقَامَةِ.

كَانَتْ (سَلْمَى) مَحْبُوبَةً بَيْنَ زَمِيلَاتِهَا؛ لِمَا تَتَمَتَّعُ بِهِ مِنْ خِفَّةِ الظِّلِّ وَرُوحِ الدَّعَابَةِ وَمُسَاعَدَةِ الْأُخْرَيَاتِ فِي الْمُذَاكَرَةِ بِكُلِّ تَوَاضُعٍ.. كَانَ جُلُّ الْأَسَاتِذَةِ يَرَوْنَ فِيهَا الطَّالِبَةَ النَّمُوذَجِيَّةَ؛ بِسَبَبِ الْأَخْلَاقِ الرَّاقِيَةِ وَسُرْعَةِ الْبَدِيهَةِ وَتَحْقِيقِ النَّتَائِجِ الْمُمَيَّزَةِ.. وَأَصْبَحَتْ مِحْوَرًا لِكَثِيرٍ مِنْ أَنْشِطَةِ النَّادِي الصِّحِّيِّ فِي الْجَامِعَةِ؛ بِمَا تَقْتَرِحُهُ مِنْ أَفْكَارٍ إِبْدَاعِيَّةٍ، وَمَا تُشَارِكُ فِيهِ مِنْ أَعْمَالٍ تَطَوُّعِيَّةٍ، وَمَا تَخْلُقُهُ مِنْ حَيَوِيَّةٍ فِي الْمُلْتَقَيَاتِ وَالنَّدَوَاتِ..

كُلُّ هَذَا لَمْ يُسَلِّهَا يَوْمًا عَنِ الشَّوْقِ لِلْعَوْدَةِ إِلَى بَيْتِهَا الطُّوبِيِّ الْحَنُونِ، الَّذِي تَلْمَحُ فِي كُلِّ شِبْرٍ مِنْهُ ذِكْرَى لَمْ يَمْحُهَا طُولُ الزَّمَانِ وَلَا بُعْدُ الْمَكَانِ؛ مَا يَزَالُ بَيْنَ نَاظِرَيْهَا ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي شَارَكَتْ إِخْوَتَهَا فِي كِتَابَةِ الْمَسَافَةِ الْفَاصِلَةِ بَيْنَ بَابِهِ وَبَابِ الْقُدْسِ الشَّرِيفِ، تَتَذَكَّرُ تِلْكَ الْعَشِيَّةَ الَّتِي اتَّسَعَ فِيهَا –عَلَى ضَيْقِهِ- لِاسْتِقْبَالِ قَرِيبَاتِهَا وَصَدِيقَاتِهَا حِينَ دَعَتْهُنَّ لِلاحْتِفَالِ بِحُصُولِهَا عَلَى الشَّهَادَةِ الَّتِي تُؤَهِّلُهَا لِدُخُولِ الجَامِعَةِ، لَمْ تَنْسَ الْبَهْجَةَ الَّتِي كَانَتْ تَنْبَعُ مِنْ عَيْنَيْ أَبِيهَا حِينَ يَرَاهَا تُعِينُ إِخْوَتَهَا فِي الْمُذَاكَرَةِ وَتَغْمُرُهُمْ بِالنَّصَائِحِ وَالتَّوْجِيهَاتِ، وَلَنْ تَنْسَ صَوْتَهُ الْقَدِيمَ: "أُرِيدُ أَسْنَانًا يَا صَغِيرَتِي".

..تَغَيَّرَ الْكَثِيرُ فِي حَيَاةِ (سَلْمَى)، وَقَلَبَتْ عَوَادِي الزَّمَنِ كَثِيرًا مِنَ الْحِسَابَاتِ الَّتِي كَانَتْ تُخَطِّطُ لَهَا، وَلَعَلَّ هَذَا مَا زَادَهَا إِصْرَارًا عَلَى النَّجَاحِ وَتَشَبُّثًا بِالتَّمَيُّزِ. الْيَوْمَ وَهِيَ تَقْضِي بَعْضَ الْأَغْرَاضِ فِي الْمَدِينَةِ رَأَتْ كَهْلاً تُرَافِقُهُ فَتَاةٌ فِي عُمْرِ اِبْنَتِهِ، اسْتَوْقَفَتْهَا الْعَلَاقَةُ الْمَتِينَةُ الَّتِي بَيْنَهُمَا؛ كَانَتْ يَدَاهُمَا مُتَشَابِكَتَيْنِ، وَتَنَاجِيهِمَا لَا يَكَادُ يَنْقَطِعُ وَابْتِسَامَاتُهُمَا الْمُتَبَادَلَةُ تُوحِي بِمَدَى الانْسِجَامِ بَيْنَهُمَا.. أَنْعَشَ ذَلِكَ الْمَشْهَدُ الْفِطْرِيُّ تَخَيُّلَهَا الْمُتَعَثِّرَ لِضِحْكَةِ وَالِدِهَا وَهِيَ تَطْلُبُ مِنْهُ أَنْ يُرَافِقَهَا إِلَى طَبِيبِ الْأَسْنَانِ ضِحْكَةٌ كَالْأَطْفَالِ لَمْ تَتَغَيَّرْ عَلَى الرَّغْمِ مِنَ الْمَرَضِ الَّذِي نَهَشَ جِسْمَهُ، كَانَا سَيَعُودَانِ مَعًا إِلَى الْمَنْزِلِ، وَأَبُوهَا يُخْفِي سُرُورَهُ بِالْأَسْنَانِ الْجَدِيدَةِ الَّتِي سَيَأْكُلُ بِهَا خُبْزًا مُتَمَاسِكًا، كَانَ لَيْلَتَهَا سَيَنَامُ بَعْدَ أَنْ يَأْكُلَ اللَّحْمَ دُونَ دَقِّهِ فِي الْمِهْرَاسِ.. كَانَ خَيَالُ (سَلْمَى) فَسِيحًا بِقَدْرِ طُمُوحِهَا، لَكِنَّ ذِكْرَيَاتِهَا -عَلَى الرَّغْمِ مِنْ إِشْرَاقِ كَثِيرٍ مِنْ جَوَانِبِهَا- كَانَتْ أَحْيَانًا تُدْمِعُ عَيْنَيْهَا وَتُعَكِّرُ خَاطِرَهَا وَتَقْهَرُ فُؤَادَهَا الْمُرْهَفَ.

عَاشَ (حَمْدُونُ) مُضَحَّيًا بِالرَّغْمِ مِنْ فَقْرِهِ الْمُدْقِعِ، وَاسْتَطَاعَ أَنْ يُرَبِّيَ أَبْنَاءَهُ عَلَى الْقَنَاعَةِ وَالسَّمَاحَةِ وَالصِّدْقِ، وَغَرَسَ فِيهِمْ رُوحَ التَّكَافُلِ وَالْكِفَاحِ.. وَمَاتَ قَبْلَ أَنْ تَتَمَكَّنَ (سَلْمَى) مِنْ تَحْقِيقِ وَعْدِهَا، فَقَدْ حَمَلَ مَعَهُ حُلُمَهُ بِمَضْغِ الْخُبْزِ دُونَ أَلَمٍ.

اشْتَهَرَتْ طَبِيبَةُ الْأَسْنَانِ بِيَدِهَا الْمَيْمُونَةِ؛ فَتَمَيَّزَتْ بِعِلَاجِهَا لِلْمَرْضَى بِأَخَفِّ دَرَجَاتِ الْأَلَمِ، وَكَانَتْ تَهَبُ السَّكِينَةَ لِكُلِّ سِنٍّ طَبَّبَتْهَا، وَبَلَغَتْ مِنْ إِتْقَانِهَا لِعَمَلِهَا دَرَجَةً جَعَلَتْ جُلَّ مَنْ رَمَّمَتْ أَسْنَانَهُمْ لَا يُفَرِّقُونَ بَيْنَ الْأَسْنَانِ الْأَصْلِيَّةِ وَالْأَسْنَانِ الْمُرَمَّمَةِ.

وَبَعْدَ بِضْعَةِ أَعْوَامٍ أَصْبَحَتْ لَهَا عِيَادَةٌ هِيَ الْأَفْضَلُ فِي الْمَدِينَةِ؛ بِخِدْمَاتِهَا الْمُتَكَامِلَةِ وَجُودَتِهَا النَّادِرَةِ وَأَسْعَارِهَا الْيَسِيرَةِ، وَلَمْ تَكُنْ تَأْخُذُ مِنَ الْبُسَطَاءِ إِلَّا مَا

يَحْفَظُ مَاءَ وَجْهِهِمْ؛ حَتَّى لَا يَثْنِيهِمُ الْخَجَلُ إِذَا احْتَاجُوا الْعَوْدَةَ مَرَّةً أُخْرَى، فَغَلَبَ عَلَى عِيَادَتِهَا اِسْمُ (عِيَادَةِ الْمَسَاكِينِ).

وَهَبَتْ (سَلْمَى) نَفْسَهَا لِمُسَاعَدَةِ كُلِّ مَنْ لَمَسَتْ فِيهِ الْحَاجَةَ إِلَيْهَا دُونَ تَرَدُّدٍ وَحَقَّقَتْ كُلَّ طَلَبَاتِ عَائِلَتِهَا وَأَكْثَرَ، إِلَّا أَنَّهَا لَمْ تَسْتَطِعْ نِسْيَانَ صَوْتَ وَالِدِهَا، فَكُلُّ لَيْلَةٍ حِينَ تَضَعُ رَأْسَهَا عَلَى الْوِسَادَةِ تَسْمَعُه يَقُولُ: "أُرِيدُ أَسْنَانًا يَا صَغِيرَتِي".

.....

الطَّاقَةُ الرَّفِيقَةُ

وَظَلَّ يُرَاوِدُ بَالَهُ ذَلِكَ الْاِسْتِفْهَامُ الْقَدِيمُ، الَّذِي لَازَمَهُ مُنْذُ جُلُوسِهِ عَلَى مَقَاعِدِ الدِّرَاسَةِ الْأُوْلَى، حِينَ تَعَلَّمَ أُنْشُودَةَ (الطَّاقَةِ الرَّفِيقَةِ):

عَلَى بِيئَتِي بَانَ بَعْضُ الْوَجَعْ *** فَقُمْـــــتُ أُنَاشِدُهَا: مَا وَقَعْ؟

فَقَالتْ: أَلَمْ تَدْرِ مَا سَاءَنِي؟ *** وَهَـــــذَا التَّلَوُّثُ يَجْتَاحُنِي

فَكمْ يُلْحِقُ الْغَازُ بِي مِنْ ضَرَرْ *** وَفِي النَّفْطِ كَمْ مِنْ أَذًى وَخَطَرْ

فَقُلْتُ: هُمَا مَصْدَرٌ نَافِـــعُ *** وَإِنْ بَاغَتَانَا بِمَا يُوجِـــــعُ

فَهَلْ مِنْ بَدِيـــلٍ يَكُونُ لَنَا *** نَظِيفًا نُعَـــــانِقُ فِيهِ الْهَنَا

أَجَابَتْ: مَصَـــادِرُنَا وَافِيَةْ *** وَأَوَّلُهَا شَمْسُنَا الصَّافِـــيَةْ

وَشَلَّالُ مَاءٍ وَفِي سَـــــدِّهِ *** وَفِي جَزْرِ بَحْـــــرٍ وَفِي مَدِّهِ

وَحِينَ تَهُـــبُّ الرِّيَاحُ الَّتِي *** تَكُـــــونُ لَنَا مَنْبَعَ الطَّاقَةِ

فَهَذِي مَنَابِعُ مَجَّـــــانِيَةْ *** وَمِيزَتُـــــــهَا أَنَّهَا بَاقِيَةْ

وَفِيهَا اقْتِصَادٌ لِكُـلِّ الْبِلَادْ *** وَلَا ضُـــرَّ مِنْهَا يَمُسُّ الْعِبَادْ

وَأَنْتَ اجْتَهِدْ كَيْ يَزِيدَ الْأَمَلْ *** وَمُسْتَقْبَـلًا تَسْتَطِيعُ الْعَمَلْ

وَقَـــدْ تَنْتَهِـــي لِاكْتِشَـــافٍ *** وَقَـدْ تَسْتَطِيعُ اخْتِرَاعَ الْمَزِيدْ

فَقُلْتُ: لَكِ الشُّكْرُ يَا بِيئَتِي *** سَأَعْمَلُ بِالنُّصْحِ مِنْ سَاعَتِي

أَصْبَحَتْ هَذِهِ الْكَلِمَاتُ نُقْطَةَ اِنْطِلَاقٍ لِقِطَارِ حَيَاتِهِ العِلْمِيّ، وَالْحَقِيقَةُ أَنَّهَا لَمْ تَشْغَلْهُ بِسُؤَالٍ وَاحِدٍ فَقَطْ، بَلْ بِشَجَرَةٍ مِنَ الْأَسْئِلَةِ، أَخَذَتْ تَتَجَذَّرُ فِي تَفْكِيرِهِ كُلَّمَا تَقَدَّمَ بِهِ الْعُمُرُ، لَمْ تَكُنْ تُلِحُّ عَلَيْهِ دَائِمًا، لَكِنَّهَا تُوَافِي ذَاكِرَتَهُ غِبًّا، وَلَعَلَّ أَطْوَلَ فَتْرَةٍ رَافَقَتْهُ فِيهَا كَانَتْ حِينَ بَلَغَ الثَّانَوِيَّةَ، وَاسْتَطَاعَ أَنْ يُسَافِرَ إِلَى الْمَدِينَةِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فِي حَيَاتِهِ.

الْمِرْوَحِيَاتُ العِمْلَاقَةُ الْمُتَنَاثِرَةُ عَلَى قَارِعَةِ الطَّرِيقِ كَانَتْ تُؤْنِسُ وَحْشَةَ ذَهَابِهِ وَإِيَابِهِ، يُشَاهِدُ مِنْ خِلَالِهَا أَيَّامَهُ الخَوَالِي مَعَ الْأَفْلَامِ الكَارْتُونِيَّةِ؛ حَيْثُ تَطِيرُ السَّاحِرَةُ الشَّمْطَاءُ عَلَى مِكْنَسَتِهَا الْيَدَوِيَّةِ لِتَطُوفَ حَوْلَ الطَّاحُونَاتِ الْهَوَائِيَّةِ.. وَمَا يَكَادُ هَذَا الْمَشْهَدُ يَضْمَحِلُّ بَيْنَ الْحَقِيقَةِ وَالْخَيَالِ حَتَّى تُثِيرُهُ أَشِعَّةُ الشَّمْسِ الَّتِي تَعْكِسُهَا الْأَلْوَاحُ الزُّجَاجِيَّةُ الْمُرَتَّبَةُ بِشَكْلٍ بَدِيعٍ فِي حُقُولٍ شَاسِعَةٍ ضُرِبَ عَلَيْهَا سِيَاجٌ حَدِيدِيٌّ تَنَاوَلَهُ الصَّدَأُ، فَيَسْتَعِيدُ فِي مُخَيِّلَتِهِ تِلْكَ الصُّورَةَ الَّتِي كَانَتْ عَلَى خَلْفِيَّةِ الْأُنْشُودَةِ الْأُولَى فِي كِتَابِ الْقِرَاءَةِ.

كَانَتْ هَذِهِ الْمَشَاهِدُ وَغَيْرُهَا كَفِيلَةً بِالْإِجَابَةِ الْمَبْدَئِيَّةِ عَلَى بَعْضِ الْاِسْتِفْهَامَاتِ الْبَسِيطَةِ الَّتِي خَمَّرَهَا الزَّمَنُ فِي عَقْلِهِ، لَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهَا لَمْ تَبُحْ بِهِ الْحَيَاةُ بَعْدُ.

رَغْمَ الْبِيئَةِ الْبَسِيطَةِ الَّتِي نَشَأَ فِيهَا (خَلِيفَةُ)، لَكِنَّهُ مُقَارَنَةً بِأَقْرَانِهِ لَمْ يَكُنْ بَسِيطًا فِي تَفْكِيرِهِ يَوْمًا؛ فَقَدْ تَمَيَّزَ مُنْذُ صِبَاهُ بِصَمَّامٍ عَقْلِيٍّ وَغِرْبَالٍ فِكْرِيٍّ، جَعَلَاهُ لَا يَتَقَبَّلُ كُلَّ فِكْرَةٍ تُشَاعُ، وَلَا يُؤْمِنُ بِأَيِّ نَظَرِيَّةٍ تُذَاعُ، إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَقِفَ عَلَى الْحُجَجِ النَّاصِعَةِ وَالْأَدِلَّةِ القَاطِعَةِ، وَلَعَلَّ هَذَا مَا جَعَلَهُ مُثْقَلًا بِالْإِشْكَالَاتِ الَّتِي مَا انْفَكَّ يَنْبُشُ عَنْ حَلِّهَا فِي كُلِّ مَكْمَنٍ؛ يُطَالِعُ الْكُتُبَ عَلَى اِخْتِلَافِ مَجَالَاتِهَا، يُنَاقِشُ أَهْلَ الْاِخْتِصَاصِ فِي غَزِيرِ الْمَسَائِلِ الَّتِي تَشُدُّهُ، يُتَابِعُ الْأَشْرِطَةَ الْوَثَائِقِيَّةَ وَالْأَفْلَامَ الْعِلْمِيَّةَ

الَّتِي تُنَمِّي إِدْرَاكَهُ وَقُدرَاتِهُ، وَلَمْ يَكُنْ هَذَا لِيُغْنِيَهُ عَنِ التَّجْرِيبِ وَالْمُمَارَسَةِ كُلَّمَا سَنَحَتِ الْفُرْصَةُ، لَقَدْ تَوَفَّرَتْ فِيهِ خِصَالٌ عَدِيدَةٌ وَمَوَاهِبُ فَرِيدَةٌ، أَهَّلَتْهُ لِأَنْ يَسْلُكَ مَسَارًا هَنْدَسِيًّا فِي الْجَامِعَةِ.

وَلِتَفَوُّقِهِ الْجَامِعِيّ حَصَلَ عَلَى مِنْحَةٍ دِرَاسِيَّةٍ مِن إِحْدَى الْجَامِعَاتِ الْعَالَمِيَّةِ الْمَرْمُوقَةِ، لَكِنَّ تَمَكُّنَهُ مِنْ لُغَةِ الدِّرَاسَةِ الْجَدِيدَةِ لَمْ يَكُنْ فِي الْمُسْتَوَى الْمَطْلُوبِ، مِمَّا جَعَلَهُ يَنْكَبُّ اِنْكِبَابًا عَلَى تَعَلُّمِهَا، لِيُحَقِّقَ فِي فَتْرَةٍ وَجِيزَةٍ مَا يُؤَهِّلُهُ لِمُسْتَوَى الْإِتْقَانِ.

هُنَاكَ فِي رِحْلَتِهِ الْعِلْمِيَّةِ عَثَرَ عَلَى أَجْوِبَةٍ بَلَغَتْ حَدَّ الْإِشْبَاعِ وَالْإِقْنَاعِ، وَأَزَالَتْ كَثِيرًا مِنْ عَلَامَاتِ الْاِسْتِفْهَامِ وَالتَّعَجُّبِ الَّتِي أَنْهَكَتْ تَفْكِيرَهُ دَهْرًا؛ فِي الْمَخَابِرِ وَالْوَرَشَاتِ أَدْرَكَ دِقَّةَ التِّقْنِيَاتِ الَّتِي تَتَكَامَلُ فِي سَبِيلِ الْوُصُولِ إِلَى مُنْتَجٍ طَاقَوِيٍّ نَظِيفٍ، فِي الْمَصَانِعِ خَبِرَ كَيْفَ يُمْكِنُ لِتِلْكَ الْمُخَطَّطَاتِ وَالْبَرَامِجِ أَنْ تَقُومَ عَلَى رِجْلَيْهَا فِي الْحُقُولِ الْفَسِيحَةِ فَقِهَ كَيْفَ تَعْمَلُ الآلَاتُ الضَّخْمَةُ الَّتِي لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ عَنْهَا إِلَّا شَكْلَهَا الْمُلْفِتَ مِنْ بَعِيدٍ، حِينَ كَانَتْ تَمُرُّ أَمَامَهُ سَرِيعًا كَشَرِيطٍ مِنَ الْمُسْتَقْبَلِ، وَهُوَ يُمْعِنُ النَّظَرَ فِيهَا حَتَّى يَلْتَفَّ بِرَأْسِهِ إِلَى الْوَرَاءِ قَبْلَ أَنْ تَتَلَاشَى خَلْفَ التِّلَالِ.

لَقَدْ حَلَّ ذَلِكَ الْمُسْتَقْبَلُ، وَأَصْبَحَ هُوَ جُزْءًا مِنْ مَشَاهِدِهِ الَّتِي أَضَاءَتْ بَالَهُ بَعْدَ أَنْ كَانَ مُعْتِمًا يَسْتَجْدِي الضَّوْءَ مِنْ كُلِّ شَمْعَةٍ ذَاتَ عَهْدٍ؛ فَكَمْ مُشَارَكَاتٍ كَانَتْ لَهُ فِي وَضْعِ الْمُخَطَّطَاتِ! وَكَمْ مَرَّاتٍ كَانَتْ لَهُ الْيَدُ الطُّولَى فِي تَنْفِيذِهَا عَلَى الْمَيْدَانِ! حَيْثُ أَشِعَّةُ الشَّمْسِ اللَّافِحَةِ، وَتِيَّارَاتُ الْهَوَاءِ الْعَنِيفَةِ، الَّتِي تَذَكِّرُهُ بِأَيَّامِ الْفُتُوَّةِ الْجَمِيلَةِ عَلَى قَسَاوَتِهَا.

عَلِمَ خِلَالَ ذَلِكَ أَنَّ مَا كَانَ يَرَاهُ مِنْ أَلْوَاحٍ زُجَاجِيَّةٍ وَأَعْمِدَةٍ بَاسِقَةٍ وَعَجَلَاتِ عِمْلَاقَةٍ تُحَاذِي الْمَصَبَّاتِ.. مَا هِيَ إِلَّا وَاجِهَاتٌ بَسِيطَةٌ، تُخْفِي فِي بَاطِنِهَا كَمًّا مُعَقَّدًا مِنَ الْمَحَالِيلِ الكَهْرَبَائِيَّةِ وَالْأَجْهِزَةِ الدَّقِيقَةِ وَالتِّقْنِيَاتِ الْمُتَطَوِّرَةِ.

لَمْ يَكُنْ لِلْعَنَفَاتِ الْعَالِيَةِ مُحَرِّكٌ يُدِيرُهَا كَمَا كَانَ يَظُنُّ، فَلَا مُدِيرَ لَهَا سِوَى الرِّيَاحِ، وَلَا يَمْكِنُ لِلرِّيَاحِ نَفْسِهَا أَنْ تُؤَثِّرَ عَلَيْهَا بِالشَّكْلِ الْمِثَالِيِّ إِلَّا حِينَ تَكُونُ هَنْدَسَتُهَا نَمُوذَجِيَّةً. إِنَّهَا مِثْل الْإِنْسَانِ تَمَامًا، لَا يَمْكِنُ أَنْ يَتَأَثَّرَ بِمَا يَدُورُ حَوْلَهُ مِنْ عَوَامِلَ مَهْمَا بَلَغَتْ، إِلَّا إِذَا كَانَ مُهَيَّئًا بِصِفَاتٍ مُخْصُوصَةٍ تَجْعَلُهُ مُسْتَعِدًّا لِلتَّأَثُّرِ بِهَا.

كَمْ مَرَّة سَاوَرَهُ الشَّكُّ فِي أَنَّ دَوَرَانَ تِلْكَ الْعَنَفَاتِ لَمْ يَكُنْ بِالسُّرْعَةِ الْمَطْلُوبَةِ لِتَوْلِيدِ الطَّاقَةِ. حَقًّا، لَقَدْ كَانَ ذَلِكَ الشَّكُّ فِي مَحَلِّهِ؛ فَقَدْ أَدْرَكَ الْآنَ أَنَّ مِحْوَرَ الدَّوَرَانِ يَقُومُ بِتَحْرِيكِ مُسَنَّنَاتٍ هَائِلَةٍ فِي الدَّاخِلِ، لِيَتَوَلَّدَ عَنْ ذَلِكَ كَمِّيَّةٌ مُرْعِبَةٌ مِنَ الطَّاقَةِ. لَكَأَنَّهَا الْفِكْرَةُ الَّتِي تَسْكُنُ حُرُوفَ لَافِتَةٍ أَوْ شَطْرَ بَيْتٍ شِعْرِيٍّ أَوْ بَقِيَّةَ عِبَارَةٍ عَلَى حَائِطٍ بَالٍ، تَبْدُو بَسِيطَةً لِلْوَهْلَةِ الْأُولَى، وَمَا تَلْبَثُ أَنْ تَصِيرَ عَمَلًا جَبَّارًا إِذَا صَادَفَتْ ظُرُوفَهَا الْمُلَائِمَةَ. لَا يَدْرِي سَبَبَ تَذَكُّرِهِ لِشَجَرَةِ الْخَيْزُرَانِ كُلَّمَا تَذَكَّرَ دَوَرَانَ الْعَنَفَاتِ تِلْكَ؛ رُبَّمَا لِأَنَّ الْخَيْزُرَانَ تَبْدُو مُتَوَقِّفَةً عَنِ النُّمُوِّ فِي سَنَوَاتِهَا الْأُولَى رَغْمَ سَقْيِهَا وَالْعِنَايَةِ بِهَا، ثُمَّ تُفَاجِئُ الْجَمِيعَ بِنُمُوٍّ صَادِمٍ.

لَكِنْ لِمَاذَا هِذِهِ الضَّخَامَةُ؟ وَلِمَ كُلُّ هَذَا الْارْتِفَاعِ؟ أَلَيْسَ فِيهِ خَطَرٌ؟!

لَا يَا عَبْقَرِيُّ! فَكُلَّمَا اِرْتَفَعَتْ فِي السَّمَاءِ زَادَ نَصِيبُهَا مِنَ الرِّيَاحِ، وَبِذَلِكَ تَكُونُ الطَّاقَةُ النَّاتِجَةُ أَكْبَرَ. وَكُلَّمَا كَانَتْ كَبِيرَةً فَإِنَّهَا تُجَابِهُ الرِّيَاحَ أَكْثَرَ، وَلَوْ كَانَتْ قَرِيبَةً مِنَ الْأَرْضِ لَلَامَسَتْهَا، وَلَا تَخْشَ اِنْهِيَارَهَا، فَقَدْ وُضِعَتْ عَلَى أَسَاسٍ صَحِيحٍ وَبِنْيَةٍ مَتِينَةٍ.

اِسْتَغَلَّ (خَلِيفَةُ) فَتْرَةَ وُجُودِهِ فِي تِلْكَ الْأَجْوَاءِ الدَّسِمَةِ بِالْعُلُومِ وَالتَّجَارِبِ فَحَاوَلَ أَنْ يَصِلَ إِلَى الْأَجْوِبَةِ الَّتِي تَشْفِي غَلِيلَهُ عَنْ كُلِّ مَا يَتَّقِدُ فِي صَدْرِهِ مِنْ أَسْئِلَةٍ تَتَعَلَّقُ بِأَنْوَاعِ الطَّاقَةِ الْمُتَجَدِّدَةِ: الشَّمْسِيَّةِ وَالْكَهْرَمَائِيَّةِ وَالْبِيُولُوجِيَّةِ وَطَاقَةِ الرِّيَاحِ.. بَلْ تَجَاوَزَ ذَلِكَ إِلَى مَعْرِفَةِ كَثِيرٍ مِنَ التَّفَاصِيلِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِمَجَالَاتٍ بِيئِيَّةٍ أُخْرَى، مِثْل: إِعَادَةِ التَّدْوِيرِ، الْاِقْتِصَادِ الْبِيئِيِّ، الزِّرَاعَةِ الْمُسْتَدَامَةِ...

كَانَتْ تِلْكَ السَّنَوَاتُ الَّتِي قَضَاهَا فِي الْمِنْحَةِ كَفِيلَةً بِأَنْ تَفْتِلَ عَقْلَهُ وَتَقْدَحَ فِي فِكْرِهِ شُعْلَةً مُضِيئَةً يُمْكِنُ أَنْ يُجَدِّدَ بِهَا فَوَانِيسَ بِيئَتِهِ الْخَافِتَةِ لَوْ سَنَحَتِ الْفُرْصَةُ، عَادَ وَقَدِ اِنْطَفَأَتْ كُلُّ الْأَسْئِلَةِ الَّتِي تَوَلَّدَتْ عَنْ تِلْكَ الْأُنْشُودَةِ الْبِكْرِ، إِلَّا اِسْتِفْهَامًا يَتِيمًا.

لِمَاذَا لَا تَكُونُ حَيَاتُنَا رَفِيقَةً لِلْبِيئَةِ؟

لَمْ يَكُنْ بِاسْتِطَاعَةِ أَحَدٍ أَنْ يُجِيبَهُ عَنْ هَذَا السُّؤَالِ الْعَمِيقِ، وَهُوَ نَفْسُهُ مَا كَانَ لِيُصَدِّقَ أَيَّ جَوَابٍ إِلَّا إِذَا أَحَاطَتْ بِهِ الْحُجَّةُ الْوَازِنَةُ، فَقَدْ زَادَتْ مَسَامَاتُ غِرْبَالِهِ ضَيْقًا عَنْ ذِي قَبْلٍ، فَلَمْ يَعُدْ يُعِيرُ اِهْتِمَامًا لِلْأَقْوَالِ النَّظَرِيَّةِ، فَهُوَ الْآنَ رَئِيسُ الْمُهَنْدِسِينَ وَأَحَدُ الْمُسْتَشَارِينَ التِّقْنِيِّينَ الَّذِينَ يُحْسَبُ لِرَأْيِهِمْ حِسَابًا اِسْتِثْنَائِيًّا، وَبِقَدْرِ مَا تَكُونُ اِسْتِشَارَاتُهُ الْحَصِيفَةُ ثَمِينَةً فَإِنَّ الْهَفَوَاتِ الضَّئِيلَةَ مِنْهُ ثَقِيلَةٌ وَمُكْلِفَةٌ.

لَمْ يَدُمْ فِي مَنْصِبِهِ الْاِسْتِشَارِيِّ طَوِيلًا، فَقَدْ أَهَّلَتْهُ آرَاؤُهُ السَّدِيدَةُ وَإِنْجَازَاتُهُ الْعَدِيدَةُ لِيَكُونَ أَصْغَرَ رَجُلٍ يَعْتَلِي سُدَّةَ الْوِزَارَةِ، إِنَّهَا وِزَارَةُ الْبِيئَةِ وَمَا يَكْتَنِفُهَا! وَهَذَا أَرْقَى مَقَامٍ وَأَحْكَمُ زِمَامٍ وَأَوْسَعُ مَيْدَانٍ يُمْكِنُ أَنْ يَجِدَ فِيهِ ضَالَّتَهُ، فَالسُّؤَالُ الْعَقِيمَ الَّذِي تَبَقَّى مِنْ بَاقَةِ الْأَسْئِلَةِ الْغَابِرَةِ مَا يَزَالُ يُلِحُّ عَلَيْهِ مِنْ حِينٍ لِآخَرَ.

يَعْلَمُ الْوَزِيرُ أَنَّ سُؤَالَهُ هَذِهِ الْمَرَّةَ لَا يَحْتَاجُ إِلَى الْمَفَاهِيمِ الْعِلْمِيَّةِ وَحْدَهَا، وَلَا الْمُمَارَسَاتِ الْمَيْدَانِيَّةِ بِمُفْرَدِهَا، وَلَا يُمْكِنُهُ أَنْ يَصِلَ لِحَلٍّ قَيِّمٍ بِجُهْدِهِ الْفَرْدِيِّ فَقَطْ، بَلْ

إِنَّ مَا يَشْغَلُهُ لَيْسَ سُؤَالًا فَحَسْبُ، بِقَدْرِ مَا هُوَ اِنْشِغَالٌ يَحْتَاجُ إِلَى شَبَكَةٍ مِنَ الْجُهُودِ الْمُتَكَامِلَةِ لِفَكِّهِ، وَهُوَ الْآنَ يَمْلِكُ رَأْسَ خَيْطِ هَذِهِ الشَّبَكَةِ تَقْرِيبًا.

لَقَدْ كَانَ ذَاتَ مَجْلِسٍ قَابَ قَوْسَيْنِ مِنْ مَصْدَرِ اِتِّخَاذِ الْقَرَارِ، وَكَثِيرًا مَا كَانَ يُعْرِبُ عَنْ أَفْكَارٍ وَاِقْتِرَاحَاتٍ وَجَدَ بَعْضُهَا أُذُنًا صَاغِيَةً، وَبَقِيَ جُلُّهَا قَيْدَ أَدْرَاجِ الْاِنْتِظَارِ، وَلَكِنْ لَيْسَ مِنَ الْحِكْمَةِ أَنْ يَنْسِفَ تِلْكَ الْخُطَّةَ الَّتِي تَسِيرُ عَلَيْهَا الْبِلَادُ مُنْذُ سَنَوَاتٍ، رَغْمَ مَعْرِفَتِهِ بِمَكَامِنِ الْخَلَلِ فِي كَثِيرٍ مِنْ أَطْوَارِهَا.

فِي لَيْلَتِهِ الْمَشْهُودَةِ الَّتِي اِسْتَوْزَرَ فِيهَا، أَطَلَّ مِنْ شُرْفَتِهِ وَنَسِيمُ الْهَوَاءِ العَلِيلِ يُدَاعِبُ جَرِيدَ النَّخِيلِ النَّضِيرِ الَّذِي يَمْتَدُّ بِشَكْلٍ بَدِيعٍ عَلَى طُولِ الشَّارِعِ، تُزَيِّنُهُ الْأَضْوَاءُ الْمُلَوَّنَةُ الَّتِي تَسَلَّقَتِ النَّخْلَ كَالْحَلَزُونِ. لَقَدْ كَانَ الْمَكَانُ هَادِئًا وَالْجَوُّ مُلَائِمًا لِلتَّفْكِيرِ فِي تَصَوُّرٍ مَبْدَئِيٍّ لِاقْتِرَاحَاتٍ وَإِصْلَاحَاتٍ شَامِلَةٍ.

اِحْتَسَى رَشْفَةً مِنْ شَرَابِهِ الْمُفَضَّلِ، الشَّايِ الْمُتَبَّلِ بِالنَّعْنَاعِ الَّذِي تَمْلَأُ نُكْهَتُهُ الْمَكَانَ، وَأَخَذَ يُفَكِّرُ مَلِيًّا وَهُوَ يَضَعُ رُؤُوسَ أَقْلَامٍ يُعِيدُ تَرْتِيبَهَا حِينًا، وَيُزِيلُ بَعْضَهَا لِيُدْرِجَ أُخْرَى أَحْيَانًا. وَأَصْدَاءُ الْمَحْفُوظَةِ الْمُلْهِمَةِ الَّتِي حَفِظَهَا قَدِيمًا تُطْرِبُ خَلَدَهُ وَقْتَهَا، فَكَأَنَّ لَهَا رُوحًا تَحْضُرُ كُلَّمَا تَوَافَرَتْ طُقُوسُهَا الْمَعْهُودَةُ، إِنَّهُ يُحَاوِلُ أَنْ يَتَذَكَّرَ كُلَّ فَتِيلٍ زَادَ لِفَهْمِهِ نَزْرًا، وَيَسْتَحْضِرُ كُلَّ نَقِيرٍ تَرَكَ فِي سَمْتِهِ أَثَرًا.

فَالْحَقِيقَةُ الَّتِي يَتَرَبَّعُ عَلَيْهَا الْوَزِيرُ الْمُهَنْدِسُ بَعْدَ هَذَا الْكَمِّ مِنَ التَّرَاكُمَاتِ الْمَعْرِفِيَّةِ وَالْخِبْرَاتِ الْمَيْدَانِيَّةِ وَالْمَهَارَاتِ الشَّخْصِيَّةِ، هِيَ أَنَّ التَّفَوُّقَ الْعِلْمِيَّ وَالْاِزْدِهَارَ التِّقْنِيَّ غَيْرُ كَافٍ لِحَلِّ الْمُشْكِلَاتِ وَفَكِّ الْأَزَمَاتِ، فَهُوَ مُرْتَبِطٌ بِالْإِرَادَةِ الْحُكُومِيَّةِ وَالسِّيَاسَةِ الْإِدَارِيَّةِ وَالْإِمْكَانِيَّاتِ الْاِقْتِصَادِيَّةِ وَالتَّرْبِيَةِ الْاِجْتِمَاعِيَّةِ وَالنَّشَاطَاتِ الجَمْعَوِيَّةِ.. مِثْل الْحَيَاةِ تَمَامًا، لَا تَكُونُ مِثَالِيَّةً إِلَّا إِذَا تَكَامَلَتْ جَوَانِبُهَا لِتُنْتِجَ حَضَارَةً.

لَمْ يَكُنْ بِيَدِهِ أَنْ يُحَقِّقَ كُلَّ تِلْكَ الْمُتَغَيِّرَاتِ، فَلَيْسَ لَهُ سِوَى وِزَارَةٍ وَاحِدَةٍ، وَكَثِيرٌ مِنَ الْمُتَطَلَّبَاتِ تَحْتَاجُ إِلَى تَوَافُقٍ تَامٍّ بَيْنَ وِزَارَاتٍ أُخْرَى، وَرُبَّمَا تَتَعَدَّى ذَلِكَ إِلَى مُوَافَقَةٍ أَعْلَى، وَتَقَبُّلٍ اِجْتِمَاعِيٍّ، وَمُرَاعَاةِ كُلِّ الظُّرُوفِ الْمُحِيطَةِ، وَتَدَاعِيَاتٍ مُسْتَقْبَلِيَّةٍ يَصْعُبُ التَّنَبُّؤُ بِهَا...

فَمَا الْحَلُّ إِذَنْ؟!

بَعْدَ اِسْتِشَارَاتٍ مُكَثَّفَةٍ وَتَرْكِيزٍ كَبِيرٍ وَاِسْتِحْضَارٍ غَزِيرٍ لِكُلِّ مَا مَرَّ بِهِ، أَحَسَّ أَنَّهُ وَضَعَ يَدَهُ عَلَى الزِّرِّ الصَّحِيحِ، أَدْرَكَ أَخِيرًا مُعَادَلَةً يُمْكِنُهَا أَنْ تَجْمَعَ كُلَّ هَذِهِ الْمُتَغَيِّرَاتِ، وَإِذَا تَحَقَّقَتْ فَإِنَّ تَحْقِيقَ مَا يَصْبُو إِلَيْهِ مِنْ بِيئَةٍ مُسْتَدَامَةٍ يَبْقَى مَسْأَلَةَ وَقْتٍ لَا أَكْثَرَ؛ إِنَّهَا الذِّهْنِيَّةُ الْمُسْتَدَامَةُ.

آهٍ.. الذِّهْنِيَّةُ الْمُسْتَدَامَةُ!

إِنَّهُ الْجَوَابُ الَّذِي يُجِيبُهُ عَنِ السُّؤَالِ اللَّحُوحِ، جَوَابٌ لَا يَتَوَقَّفُ عَلَى الْمَعْرِفَةِ النَّظَرِيَّةِ فَحَسْبُ، وَلَكِنَّهُ يَحْتَاجُ إِلَى جُهُودٍ مُتَظَافِرَةٍ تَقُومُ عَلَى قَدَمٍ وَسَاقٍ، تُشَارِكُ فِيهَا كُلُّ أَطْيَافِ الْمُجْتَمَعِ؛ الصِّغَارُ وَالْكِبَارُ، الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ، الْمُعَلِّمُونَ وَالْمُتَعَلِّمُونَ السَّاسَةُ وَالْمُوَظَّفُونَ وَالْحِرَفِيُّونَ وَالتُّجَّارُ.. يَجِبُ أَنْ يُدْرِكَ الْجَمِيعُ أَهَمِّيَةَ الْبِيئَةِ لِيَتَحَقَّقَ الْأَمَلُ الْمَنْشُودُ.

وَلِيَتَمَكَّنَ مِنَ الْوُصُولِ إِلَى كُلِّ الذِّهْنِيَاتِ، حَاوَلَ أَنْ يُرَاعِيَ كُلَّ الْمَجَالَاتِ وَيَطْرُقَ كُلَّ الْمُسْتَوَيَاتِ؛ بَدَأَ بِإِعْدَادِ أَجْيَالٍ تُؤْمِنُ بِالْبِيئَةِ بِقَدْرِ مَا تُؤْمِنُ بِأَدَوَاتِهَا الدِّرَاسِيَّةِ وَلُجَتِهَا الْمَدْرَسِيَّةِ، فَأَنْشَأَ النَّوَادِيَ الْبِيئِيَّةَ فِي كُلِّ الْمَدَارِسِ التَّعْلِيمِيَّةِ.

نَوَادٍ يَتَلَقَّى فِيهَا الْأَطْفَالُ وَالتَّلَامِيذُ وَالطَّلَبَةُ الْمَبَادِئَ الْأَسَاسِيَّةَ لِلتَّعَامُلِ مَعَ عَنَاصِرِ الْبِيئَةِ عَلَى اِخْتِلَافِهَا؛ حَيَوَانَاتٍ، نَبَاتَاتٍ، مِيَاهٍ، غِذَاءٍ، مَصَادِرِ طَاقَةٍ

مُخَلَّفَاتٍ.. يُنْشِدُونَ أُغْنِيَّاتٍ وَيُرَدِّدُونَ عِبَارَاتٍ تُبْهِجُ الْبِيئَةَ وَتُشَنِّفُ أَسْمَاعَهَا يَتَعَلَّمُونَ تَزْيِينَ أَحْوَاضِ الْأَشْجَارِ بِالْقَارُورَاتِ اللدَائِنِيَّةِ الشَّاغِرَةِ، يُتَدَرَّبُونَ عَلَى صِنَاعَةِ المَقَاعِدِ الوَرَقِيَّةِ مِنْ سِلَالِ الْبِيضِ الْفَارِغَةِ، وَغَيْر ذَلِكَ مِنَ الْأَشْغَالِ الْيَدَوِيَّةِ الَّتِي تُعَلِّمُهُمْ كَيْفَ يَصْنَعُونَ مِنَ اللَّيْمُونِ شَرَابًا حَلْوًا.

قَامَ بِإِرْسَالِ الطَّلَبَةِ الْمُتَمَيِّزِينَ لِلدِّرَاسَاتِ الْبِيئِيَّةِ فِي أَرْقَى الْجَامِعَاتِ، وَخَصَّصَ مِنَحًا لِلتَّكْوِينِ فِي أَفْضَلِ الْمَخَابِرِ وَالْمَصَانِعِ بَعْدَ تَخَرُّجِهِمْ، وَلَمْ يَفُتْهُ التَّعَهُّدَاتُ الْإِجْبَارِيَّةُ الَّتِي تَضْمَنُ عَوْدَتَهُمْ إِلَى الْبِلَادِ، لِلْإِسْهَامِ فِي الثَّوْرَةِ الْبِيئِيَّةِ الَّتِي يَتَزَعَّمُهَا.

سَعَى لِإِثَارَةِ النُّخْبَةِ مِنْ أُدَبَاءَ وَبَاحِثِينَ وَتِقْنِيِّينَ، فَوَضَعَ مَجْمُوعَةً مِنَ الْجَوَائِزِ الْبِيئِيَّةِ؛ مِنْهَا الْأَدَبِيَّةُ الَّتِي تَخُصُّ الْقِصَّةَ وَالشِّعْرَ وَالْمَسْرَحِيَّةَ وَالرِّوَايَةَ.. وَمِنْهَا الْعِلْمِيَّةُ الَّتِي تَرَصُدُ الْبُحُوثَ وَالْأَفْكَارَ وَالنَّظَرِيَّاتِ، وَمِنْهَا التِّقْنِيَّةُ الَّتِي تُحَفِّزُ الْمَشَارِيعَ الْمَلْمُوسَةَ وَالْبَرَامِجَ وَالْمُنْتَجَاتِ. وَلِكُلِّ جَائِزَةٍ لَجْنَةُ اِسْتِثْمَارٍ تُتَرْجِمُ الْأَعْمَالَ الْمُمَيَّزَةَ مِنْهَا عَلَى أَرَضِ الْوَاقِعِ.

وَلِزِيَادَةِ الْإِحْسَاسِ الْاِجْتِمَاعِيِّ، اِتَّخَذَ أُسْلوبَ التَّرْغِيبِ وَالتَّأْدِيبِ؛ فَشَجَّعَ الْأَحْيَاءَ الْبَدِيعَةَ وَالْمُدُنَ النَّظِيفَةَ وَالْمَنَازِلَ الْأَقَلَّ اِسْتِهْلَاكًا لِلطَّاقَةِ.. وَأَسْهَمَ فِي وَضْعِ قَوَانِينَ صَارِمَةٍ تَضْمَنُ اِسْتِقَامَةَ الْجَمِيعِ، وَوَافَقَهُ أَهْلُ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ عَلَى إِنْشَاءِ شُرْطَةٍ بِيئِيَّةٍ لِلتَّمَكُّنِ مِنْ تَنْفِيذِهَا.

كَانَتْ هَذِهِ الْبِنْيَةُ التَّحْتِيَّةُ لِلذِّهْنِيَاتِ أَصْعَبَ مِمَّا أَقْدَمَ عَلَيْهِ فِي الْمَشَارِيعِ الضَّخْمَةِ، حَيْثُ لَمْ يُصَادِفْ عَثْرَةً فِي وَضْعِ مُنْشَآتٍ مُتَكَامِلَةٍ، فَقَدْ عَمِلَ عَلَى التَّنْسِيقِ مَعَ الْجِهَاتِ الْمُخْتَصَّةِ وَاسْتَعَانَ بِخُبَرَاءَ اِسْتَجْلَبَهُمْ مِنْ خَارِجِ الْبِلَادِ.

فَأَنْشَأَ مَزَارِعَ تُسْقَى بِالْمِيَاهِ الْمُسْتَعْمَلَةِ مِنْ أَحْوَاضِ الْأَسْمَاكِ، فَلَا تَحْتَاجُ لِمُبِيدَاتٍ بَعْدَ ذَلِكَ سِوَى بَعْضِ مُخَلَّفَاتِ الدَّوَاجِنِ وَالمَوَاشِي الَّتِي تُحَلَّلُ فِي أَحْوَاضٍ خَاصَّةٍ يَتِمُّ رِيُّ المَزَارِعِ بِالتَّقْطِيرِ الْمُبَرْمَجِ، مِمَّا يَجْعَلُهَا تُوَفِّرُ قِسْطًا كَبِيرًا مِنَ الْمَاءِ، وَفَوْقَ هَذَا تَكُونُ الْمُنْتَجَاتُ الزِّرَاعِيَّةُ مِنْهَا جَيِّدَةً وَصِحِّيَّةً.

وَتَقُومُ بَعْضُ تِلْكَ الْمُنْشَآتِ بِإِعَادَةِ تَدْوِيرِ النُّفَايَاتِ عَلَى اِخْتِلَافِ أَنْوَاعِهَا، حَتَّى لَمْ يَعُدْ فِي الْبَلَدِ نُفَايَاتٍ تُذْكَرُ، بَلْ تَعَدَّى الْأَمْرُ إِلَى اِسْتِيرَادِ نُفَايَاتِ الْبُلْدَانِ الْمُجَاوِرَةِ! كَمَا أَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَدَوَاتِ ذَاتِ الْاِسْتِعْمَالِ الْوَحِيدِ اِخْتَفَتْ، لِتَحلَّ مَكَانَهَا أُخْرَى رَفِيقَة لِلْبِيئَةِ، مِثْلَ زَوَالِ الكُؤُوسِ وَالْأَكْيَاسِ الَّتِي كَانَتْ تَمْلَأُ الْأَسْوَاقَ وَالْبُيُوتَ وَالْقُمَامَاتِ.. وَتُعِينُ الزَّوَابِعَ عَلَى إِنْهَاكِ مُهَنْدِسِ النَّظَافَةِ، فَيَقْضِي مُعْظَمَ يَوْمِهِ فِي جَمْعِهَا، فَاسْتُبْدِلَتْ بِالفَنَاجِينِ وَالسَّلَّاتِ الْوَرَقِيَّةِ الَّتِي يَسْهُلُ التَّخَلُّصُ مِنْهَا أَوْ إِعَادَةُ تَدْوِيرِهَا.

وَتَشْتَغِلُ الْوَرَشَاتُ وَالْمَخَابِرُ وَالْمَصَانِعُ عَلَى وَضْعِ الْمُخَطَّطَاتِ وَتَرْكِيبِ الْمَحَالِيلِ وَصِنَاعَةِ الْأَجْهِزَةِ لِلْحُصُولِ عَلَى الْمُعِدَّاتِ المُخْتَلِفَةِ مِنْ أَلْوَاحٍ شَمْسِيَّةٍ وَعَنَفَاتٍ هَوَائِيَّةٍ وَسُدُودٍ مَائِيَّةٍ.. لِإِنْتَاجِ طَاقَةٍ نَظِيفَةٍ سَتَكُونُ قَرِيبًا طَاقَةً بَدِيلَةً فِي سَائِرِ الْبِلَادِ.

وَهَكَذَا بَعْدَ جِدٍّ حَثِيثٍ، فَكَّ (خَلِيفَةُ) قِسْطًا كَبِيرًا مِنَ الْأَلْغَازِ الَّتِي كَانَتْ هَاجِسَهُ، وَمَا يَزَالُ فِي جَعْبَتِهِ كَمٌّ غَفِيرٌ مِنَ الْمَشَارِيعِ وَالْأَفْكَارِ، يَتَحَيَّنُ لَهَا الْفُرْصَةَ وَالزَّمَنَ لِتَحْقِيقِ بِيئَةٍ مُسْتَدَامَةٍ بِشَكْلٍ كَامِلٍ. وَلَمْ يَنْسَ وَفَاءَهُ لِلْكَلِمَاتِ الَّتِي كَانَتْ سَبَبًا فِي نَجَاحِهِ، فَعَمَّمَ إِنْشَادَهَا فِي جَمِيعِ النَّوَادِي البِيئِيَّةِ.

.....

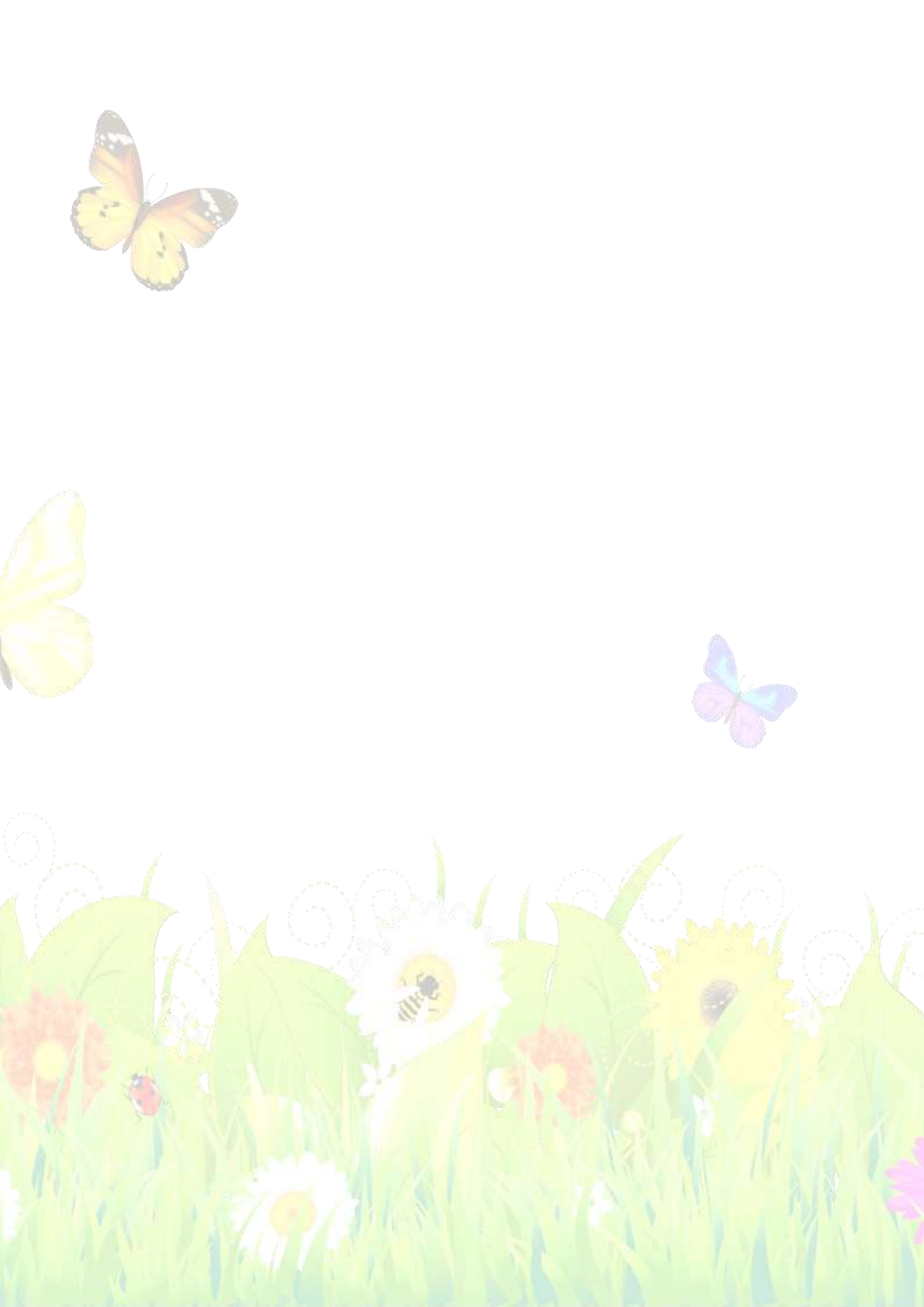

الجَزَاءُ مِنْ جِنْسِ العَمَلِ

كَانَ (جَابِرٌ) فَلَّاحًا مَاهِرًا، يَشْتَغِلَ عِنْدَ أَصْحَابِ اَلْبَسَاتِينِ بِأُجْرَةٍ زَهِيدَةٍ لَا تَكْفِيهِ لِقَضَاءِ حَاجِيَاتِهِ اَلْيَوْمِيَّةِ، فَاسْتَأْجَرَ أَرْضًا فِلَاحِيَّةً، وَأَصْبَحَ يَقْضِي فِيهَا نَهَارَهُ، فَهِيَ مَصْدَرُ قُوتِهِ الْبَسِيطِ، وَيَهْدِي مِنْ خَيْرَاتِهَا لِأَقَارِبِهِ وَجَيْرَانِهِ، وَيَتَصَدَّقُ عَلَى الْمُحْتَاجِينَ بِأَطْيَبِ مَا يَجْنِيهِ مِنْ ثُمُورٍ وَخُضَرٍ، وَيَبِيعُ بَعْضَهَا لِيُسَدِّدَ اَلْأُجْرَةَ لِصَاحِبِ اَلْبُسْتَانِ.. وَيَحْمَدُ اللهَ وَيَشْكُرُهُ رَغْمَ الْعَنَاءِ الَّذِي كَانَ يُكَابِدُهُ فِي حَرْثِ الْأَرْضِ وَسَقْيِهَا وَتَقْلِيمِ أَشْجَارِهَا...

وَقَدْ وَهَبَهُ اللهُ وَلَدًا اِسْمُهُ (سَعْدٌ) يُسَاعِدُهُ فِي أَوْقَاتِ فَرَاغِهِ، فَكَانَ يَرْجُو أَنْ يُصْبِحَ اِبْنُهُ الْوَحِيدُ ذَا شَأْنٍ كَبِيرٍ فِي حَيَاتِهِ، وَيَأْمَلُ أَنْ يَشْغَلَ وَظِيفَةً تُغْنِيهِ عَنِ الْفِلَاحَةِ وَمَشَقَّتِهَا، لَكِنَّ نَتَائِجَ الْوَلَدِ لَمْ تَكُنْ جَيِّدَةً، فَعَلَى الرَّغْمِ مِنِ اِجْتِهَادِهِ فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ سَرِيعَ الْفَهْمِ وَلَا قَوِيَ الْحِفْظِ.

وَمَا إِنْ بَلَغَ (سَعْدٌ) الْخَامِسَةَ عَشَرَ مِنْ عُمُرِهِ حَتَّى تَفَرَّغَ لِحِفْظِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ عَلَى يَدِ شَيْخِ الْبَلْدَةِ، فَكَانَ حَالُهُ مَعَ الْحِفْظِ صَعْبًا، وَلَكِنَّ وَالِدَهُ لَمْ يَدَّخِرْ جُهْدًا فِي سَبِيلِ تَحْفِيظِهِ؛ فَكَانَ يُوقِظُهُ بَاكِرًا، وَيُرَاجِعُ مَعَهُ مَا تَيَسَّرَ مِنَ الذِّكْرِ الْحَكِيمِ وَيَحُثُّهُ عَلَى الصَّبْرِ، وَيُكْرِمُ شَيْخَهُ مِنْ حِينٍ لِآخَرَ، وَيَدْعُو لَهُ بِالتَّيْسِيرِ وَالبَرَكَةِ.. فَأَخَذَ (سَعْدٌ) يَتَحَسَّنُ شَيْئًا فَشَيْئًا.

لَمْ تَعُدْ أَرْضُ اَلْبُسْتَانِ تُنْعِمُ بِالْخَيْرَاتِ مِثْلَ أَوَّلِ عَهْدِهَا، وَبَدَأَ أَثَرُ اَلْكِبَرِ يَظْهَرُ عَلَى (جَابِرٍ) فَلَمْ يَعُدْ يَقْوَى عَلَى اَلْعَمَلِ مِثْلَمَا كَانَ شَابًّا، وَارْتَفَعَتْ أَسْعَارُ الْإِيجَارِ فَلَمْ يَعُدْ يَسْتَطِيعُ تَسْدِيدَ ثَمَنِ اَلْكِرَاءِ، وَتَرَاكَمَتْ عَلَيْهِ اَلدُّيُونُ، فَهَدَّدَهُ صَاحِبُ اَلْبُسْتَانِ بِإِخْرَاجِهِ مِنْهُ إِنْ لَمْ يُسَدِّدْ كُلَّ مَا عَلَيْهِ، فَأَصْبَحَ يُفَكِّرُ لَيْلاً وَنَهَارًا كَيْفَ يَخْرُجُ مِنْ هَذِهِ اَلْأَزْمَةِ.

أَمْهَلَهُ صَاحِبُ اَلْبُسْتَانِ أُسْبُوعًا وَاحِدًا، فَكَانَ يَدْعُو اَللَّهَ أَنْ يُفْرِّجَ هَمَّهُ، وَانْتَهَتِ اَلْمُهْلَةُ وَلَمْ يَتَرَاجَعْ مَالِكُ اَلْبُسْتَانِ عَنْ قَرَارِهِ، فَقَضَى (جَابِرٌ) آخِرَ يَوْمٍ فِي الْحَقْلِ يَتَأَمَّلُ اَلْأَشْجَارَ اَلَّتِي غَرَسَهَا بِيَدَيْهِ وَرَعَاهَا بِخِبْرَتِهِ حَتَّى كَبُرَتْ وَأَثْمَرَتْ، كَانَ يُوَدِّعُ كُلَّ وَاحِدَةٍ مَرَّ بِهَا كَأَنَّهَا تَفْهَمُهُ، وَرَجَعَ مَكْسُورَ اَلْقَلْبِ إِلَى بَيْتِهِ، فلَفَتَتِ اِنْتِبَاهَهُ سِيَارَةٌ فَخْمَةٌ أَمَامَ مَنْزِلِهِ، وَمَا إِنِ اِقْتَرَبَ مِنْهَا حَتَّى نَزَلَ ثَلَاثَةُ رِجَالٍ يَبْدُو أَثَرُ النِّعْمَةِ عَلَى مَلَامِحِهِمْ، وَثِيَابُهُمُ الفَاخِرَةُ تُوحِي بِالثَّرَاءِ، فَأَلْقَى التَّحِيَةَ عَلَيْهِمْ، وَالاسْتِغْرَابُ يَعْلُو مُحَيَّاهُ، فَهُوَ لَمْ يَرَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَهَيْأَتُهُمْ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ غُرَبَاءُ عَنِ الْمَنْطِقَةِ! وَلَكِنْ لَا أَحَدَ لَهُ فِي الْغُرْبَةِ إِلَّا شَقِيقَهُ الَّذِي لَمْ يَعُدْ مُنْذُ سَنَوَاتٍ، وَلَكِنَّهُ لَيْسَ مَعَهُمْ فَاسْتَقْبَلُوهُ اِسْتِقْبَالاً حَارًا كَأَنَّهُمْ يَعْرِفُونَهُ تَمَامَ الْمَعْرِفَةِ، فَزَادَتْ حَيْرَتُهُ وَأَخَذَ يَتَلَعْثَمُ فِي سَلَامِهِ وَكَلَامِهِ.

دَعَاهُمْ (جَابِرٌ) إِلَى بَيْتِهِ لِيَسْتَضِيفَهُمْ، فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا إِلَّا بَعْدَ إِلْحَاحٍ، لَمْ تَكُنْ غُرْفَةُ الضُّيُوفِ فِي مَنْزِلِهِ تُنَاسِبُ هَيْئَةَ الرِّجَالِ، لَكِنَّ بَشَاشَتَهُ وَبَسَاطَتَهُ جَعَلَتْهُمْ فِي رَاحَةٍ وَسَعَادَةٍ، فَشَجَّعَهُمْ ذَلِكَ عَلَى التَّطَرُّقِ إِلَى الْمَوْضُوعِ الَّذِي قَطَعُوا مِنْ أَجْلِهِ مَسَافَةً طَوِيلَةً.

لَمْ يَطُلِ اِسْتِغْرَابُ (جَابِرٍ) كَثِيرًا حَتَّى عَلِمِ أَنَّهُمْ تُجَّارٌ، وَكَانَ أَخُوهُ الْمُغْتَرِبُ صَدِيقًا لَهُمْ، لَكِنَّهُ تُوُفِّيَ مُنْذُ زَمَنٍ، وَقَدْ تَعِبَ الرِّجَالُ فِي الْبَحْثِ عَنْ أَهْلِهِ، وَاهْتَدَوْا أَخِيرًا إِلَى أَنَّ لَهُ قَرِيبًا وَحِيدًا هُوَ (جَابِرٌ).. حَزَنَ لِوَفَاةِ شَقِيقِهِ، وَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ دُمُوعًا حَارَّةً وَدَعَا لَهُ بِالرَّحْمَةِ وَالْمَغْفِرَةِ، وَهُوَ يَسْتَحْضِرُ كَثِيرًا مِنْ صِفَاتِهِ اَلْحَمِيدَةِ وَمَوَاقِفِهِ النَّبِيلَةِ.

عَمَّ الصَّمْتُ عَلَى الْمَكَانِ، ثُمَّ بَادَرَ أَحَدُ الرِّجَالِ بِالْحَدِيثِ عَنِ الْأَمْلَاكِ الَّتِي تَرَكَهَا الْفَقِيدُ، لَقَدْ كَانَتْ أَمْلَاكًا عَدِيدَةً وَمُتَنَوِّعَةً، وَأَبْرَزُهَا قِطْعَةُ الْأَرْضِ الشَّاسِعَةُ، الَّتِي تَتَوَسَّطُ حَيًّا رَاقِيًا فِي أَحْيَاءِ الْعَاصِمَةِ، حَيْثُ يَسْكُنُ التُّجَّارُ الثَّلَاثُ، حَدِيثُ التُّجَّارِ الْمُسْتَطْرَدُ عَنِ الْأَرْضِ الْبَيْضَاءِ، جَعَلَتْ (جَابِرًا) يَشُكُّ فِي أَنَّهَا هِيَ الْغَايَةُ مِنْ وَرَاءِ بَحْثِهِمْ عَنْهُ، وَتَكَبُّدِهِمْ لِعَنَاءِ السَّفَرِ.

أَجَلْ، لَقَدْ كَانَ شَكُّ (جَابِرٍ) فِي مَحَلِّهِ، فَقَدْ أَفْصَحَ التُّجَّارُ عَنْ رَغْبَتِهِمْ فِي شِرَاءِ الْأَرْضِ، وَوَعَدُوهُ بِأَنْ يَدْفَعُوا ثَمَنًا بَاهِظًا، لَكِنَّهُ لَمْ يُبْدِ رَأْيَهُ فِي الْبَيْعِ، وَطَلَبَ مِنْهُمْ مُهْلَةً لِتَسْوِيَةِ وَثَائِقِ الْمِيرَاثِ، وَالِاطِّلَاعِ عَلَى الْعَقَارِ الْمَذْكُورِ وَبَقِيَّةِ التَّرِكَةِ.

لَمْ يَسْتَطِعْ (جَابِرٌ) النَّوْمَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ الَّتِي اِمْتَزَجَ فِيهَا حُزْنُهُ عَلَى أَخِيهِ بِفَرَحِهِ بِمَا تَرَكَ لَهُ، لَقَدْ أَصْبَحَ (جَابِرٌ) ثَرِيًّا بَيْنَ عَشِيَةٍ وَضُحَاهَا، وَبَاتَتْ تَتَهَاطَلُ عَلَيْهِ أَسْئِلَةٌ كَثِيرَةٌ؛ هَلْ سَيَبِيعُ قِطْعَةَ الْأَرْضِ؟ كَيْفَ سَيَتَصَرَّفُ فِي الْأَمْلَاكِ الْأُخْرَى؟ هَلْ يَنْتَقِلُ إِلَى اَلْعَاصِمَةِ؟ هَلِ الْحَيَاةُ هُنَاكَ أَفْضَلُ مِنْ قَرْيَتِهِ النَّائِيَةِ؟ هَلْ تُوَافِقُ أُمُّ (سَعْدٍ) عَلَى الْإِقَامَةِ فِي الْعَاصِمَةِ؟ وَقَدْ أَخَذَ تَفْكِيرُهُ بِمُسْتَقْبَلِ وَلَدِهِ جُزْءًا كَبِيرًا أَيْضًا؛ هَلْ يَأْخُذُهُ

مَعَهُ وَهُوَ لَمْ يُكْمِلْ حِفْظَ اَلْقُرْآنِ بَعْدُ؟ أَيُمْكِنُهُ أَنْ يَتَعَلَّمَ التِّجَارَةَ؟ هَلْ يَسْتَطِيعُ تَسْيِيرَ مَحَلَّاتِ عَمِّهِ؟

لَمْ يَلْبَثْ (جَابِرٌ) إِلَّا قَلِيلاً لِيُجَهِّزَ نَفْسَهُ، ثُمَّ أَخْبَرَ أَهْلَهُ وَشَيْخَ الْقَرْيَةِ بِسَفَرِهِ وَاتَّجَهَ إِلَى الْعَاصِمَةِ، وَمَا إِنْ وَصَلَ إِلَى الْعُنْوَانِ الَّذِي تَرَكَهُ اَلتُّجَّارُ، حَتَّى وَجَدَهُمْ فِي اِسْتِقْبَالِهِ، فَأَكْرَمُوهُ إِكْرَامًا بَاذِخًا، وَأَطْلَعُوهُ عَلَى الْأَمْلَاكِ الَّتِي آلَتْ إِلَيْهِ، وَأُعَانُوهُ فِي تَسْوِيَةِ وَثَائِقِهِ.

اِنْدَهَشَ (جَابِرٌ) مِنَ الْأَرْزَاقِ الَّتِي أَصْبَحَتْ بِحَوْزَتِهِ، وَرَأَى أَنَّهُ مِنَ الصَّعْبِ تَسْيِيرُهَا كُلَّهَا، فَقَرَّرَ بَيْعَ قِطْعَةِ الْأَرْضِ لِلتُّجَّارِ، فَفَرِحَ التُّجَّارُ بِذَلِكَ وَطَلَبُوا مُرَافَقَتَهُ لِإِتْمَامِ عَمَلِيَّةِ الْبَيْعِ فِي أَسْرَعِ وَقْتٍ. وَخِلَالَ ذَلِكَ عَلِمَ (جَابِرٌ) أَنَّ التُّجَّارَ لَيْسُوا ثَلَاثَةً فَقَطْ، وَلَكِنَّهُمْ أَكْثَرُ بِكَثِيرٍ، وَاكْتَشَفَ أَنَّهُمْ لَا يُرِيدُونَ شِرَاءَهَا لِأَغْرَاضِهِمْ الْخَاصَّةِ فَهُمْ يُرِيدُونَ بِنَاءَ مَسْجِدٍ عَلَيْهَا.

حِينَ أَدْرَكَ (جَابِرٌ) ذَلِكَ، رَجَعَ عَنْ قَرَارِهِ، وَسَأَلَ التُّجَّارَ عَنْ سَبَبِ تَكَتُّمِهِمْ عَلَى الْأَمْرِ، فَأَجَابُوهُ بِأَنَّ اللهَ وَهَبَهُمْ سِعَةً فِي الرِّزْقِ، وَهُمْ عَلَى دِرَايَةٍ بِحَالَتِهِ الْمُتَوَاضِعَةِ فَلَمْ يُفْصِحُوا لَهُ عَنْ هَدَفِهِمْ مِنْ شِرَاءِ الْأَرْضِ لِكَيْ لَا يَتَرَدَّدَ فِي أَخْذِ حَقِّهِ. فَعَاتَبَهُمْ عَلَى ذَلِكَ، وَفَاجَأَهُمْ بِأَنَّ هَذِهِ الْأَرْضَ سَتَكُونُ وَقْفًا لِوَجْهِ اَللَّهِ، وَلَنْ يَأْخُذَ مِنْهُمْ فِلْسًا وَاحِدًا، وَسَيُشَارِكُهُمْ فِي بِنَاءِ اَلْمَسْجِدِ وَمُرْفَقَاتِهِ، فَانْدَهَشُوا مِنْ كَرَمِهِ، وَأُعْجِبُوا بِحُبِّهِ لِلْخَيْرِ.

تَرَكَ الْإِشْرَافَ عَلَى الْمُمْتَلَكَاتِ لِتَاجِرٍ مِنْ أَصْدِقَاءِ شَقِيقِهِ، وَرَجَعَ إِلَى قَرْيَتِهِ لِيُبَشِّرَهُ وَلَدُهُ بِاسْتِظْهَارِ الْقُرْآنِ كَامِلاً، فَكَانَ ذَلِكَ أَسْعَدَ يَوْمٍ فِي حَيَاتِهِ، وَبِهَذِهِ

الْمُنَاسَبَةِ صَنَعَ مَأْدبَةَ عَشَاءٍ دَعَا إِلَيْهَا كُلَّ أَهْلِ الْقَرْيَةِ، وَأَكْرَمَ الشَّيْخَ بِمَجْمُوعَةٍ مِنَ الْهَدَايَا، وَطَلَبَ مِنْهُ أَنْ يُدَرِّسَ اِبْنَهُ بَعْضَ عُلُومِ الدِّينِ، فَاقْتَرَحَ عَلَيْهِ الشَّيْخُ مَدْرَسَةً قُرْآنِيَّةً أُخْرَى، شُيُوخُهَا أَكْثَرُ عِلْمًا وَأَعْزَرُ فَهْمًا، فَأَخَذَ (سَعْدًا) إِلَيْهَا.

ظَلَّ (جَابِرٌ) فِي تَوَاصُلٍ مَعَ التُّجَّارِ، وَكَانَ يَزُورُ الْعَاصِمَةَ أَحْيَانًا؛ لِرُؤْيَةِ أَشْغَالِ الْبِنَاءِ وَالْمُشَارَكَةِ فِي تَمْوِيلِهَا، وَلِتَفَقُّدِ أَمْلَاكِهِ أَيْضًا، وَمَعَ نِهَايَةِ الْعَامِ الثَّالِثِ كَانَ الْمَسْجِدُ غَايَةً فِي السِّعَةِ وَآيَةً فِي الْجَمَالِ، لَقَدْ كَانَ أَكْبَرَ جَامِعٍ فِي الْعَاصِمَةِ، فَحَضَرَ لِافْتِتَاحِهِ عُلَمَاءُ أَجِلَّاءُ، وَوَفْدٌ رَفِيعٌ مِنْ رِجَالِ الدَّوْلَةِ، وَشَخْصِيَّاتٌ بَارِزَةٌ فِي الْبِلَادِ.. وَاصْطَحَبَ (جَابِرٌ) وَلَدَهُ لِحُضُورِ الْحَفْلِ، فَتَفَاجَأَ بِمَا خَصَّهُ بِهِ التُّجَّارُ مِنْ تَكْرِيمٍ وَحَفَاوَةٍ، وَزَادَتْ بَهْجَتُهُ حِينَ عَرَفَ أَنَّ الْمَسْجِدَ يَحْمِلُ اِسْمَ أَخِيهِ.

كَانَ (سَعْدٌ) حِينَهَا قَدْ تَحَصَّلَ عَلَى الْإِجَازَةِ فِي مَجْمُوعَةٍ مِنْ عُلُومِ الدِّينِ الَّتِي تُؤَهِّلُهُ لِلْإِمَامَةِ وَالتَّدْرِيسِ، وَحِينَ عَلِمَ التُّجَّارُ بِذَلِكَ، اِسْتَأْذَنُوا وَالِدَهُ بِأَنْ يَكُونَ أَحَدَ أَئِمَّةِ الْجَامِعِ الْجَدِيدِ، فَابْتَهَجَ (جَابِرٌ) بِهَذَا الْخَبَرِ السَّعِيدِ، وَظَلَّ يَحْمَدُ اللَّهَ وَيَشْكُرُهُ عَلَى كُلِّ النِّعَمِ.

فهرس

1. وَفَاءُ الصَّدِيقَاتِ.....03

2. الصَّدَقَةُ دَوَاءٌ.....07

3. شَهَامَةُ امْرَأَةٍ.....11

4. بِالبِرّ أَصْبَحت طَبِيبَةً.....15

5. الطَّاقَةُ الرَّفِيقَةُ.....25

6. الجَزَاءُ مِنْ جِنْسِ العَمَلِ.....35

المجلس الأعلى للغة العربية

شارع فرانكلين روزفلت، الجزائر

023 48 72 79

moussabaka.hcla@gmail.com.